موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

الشمائل المحمدية

٢٠١٠

السيرة – الشمائل المحمدية ٢٠١٠ – الدرس (٠١-) : تمهيد، معرفة السنة النبوية القولية والعملية فرض عين، قيمة الأعجاز العلمي في حياتنا المعاصرة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠١٠-٠٣-٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

النبي الكريم معصوم في أقواله و أفعاله وإقراره:

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الأول من دروس شمائل النبي صلى الله عليه وسلم، ولابدّ من وقفة في بداية هذه السلسلة بالتعريف بأهمية هذا الموضوع.

الحقيقة الأولى: أن النبي عليه الصلاة والسلام معصوم بمفرده، معصوم في أقواله، وفي أفعاله، وفي إقراره، وقد أمرنا الله عز وجل من خلال القرآن الكريم أن نأخذ منه ما آتانا، وأن ننتهي عما عنه نهانا، فمتابعة النبي عليه الصلاة والسلام في أقواله وفي أفعاله وفي إقراره واجب عيني على كل مسلم، لأنه القدوة، ولأنه المثل، ولأنه يمثل الكمال البشري، ولأن الله عز وجل بعثه هادياً لكل الأمم من دون استثناء بل هو رحمة للعالمين.

أنت كإنسان مؤمن تبتغي الله والدار الآخرة لا بدّ من أن يكون هذا الإنسان العظيم قدوة لك في كل أحواله؛ في بيته، في عمله، مع أخوانه، مع أصحابه، في سلمه، في حربه، في فقره، في غناه، في ضعفه، في قوته، هو القدوة والمثل، وقد أمرت أن تتابع النبي عليه الصلاة والسلام وقد قال الله عز وجل:

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

[سورة آل عمران]

المسلمون اليوم في أمس الحاجة إلى معرفة سيرة النبي و شمائله:

بل إن كل ما يعانيه العالم الإسلامي اليوم من ضعف وتفرق بسبب بعد المسلمين عن تطبيق سنة النبي القولية، وعن الاقتداء بسنته العملية، والدليل قوله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾

[سورة الأنفال الآية: ٣٣]

قال علماء التفسير: معنى الآية بعد انتقال النبي عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى، أي مستحيل وألف ألف مستحيل أن يعذب المسلمون بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام ما دامت سنة النبي عليه الصلاة والسلام، ومنهجه، وسيرته قائمة في حياتهم، هذا هو التفسير الأول:

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾

فنحن بحسب هذه النصوص وتلك المقدمة في أمس الحاجة إلى معرفة سيرة النبي، ومعرفة شمائله.

بالمناسبة السيرة تخضع للتسلسل الزمني، هذا معنى السيرة، لكن الشمائل تخضع للتصنيف الموضوعي، فالنبي الكريم الحديث عن رحمته من الشمائل، وعن عدله من الشمائل، وعن حلمه من الشمائل، وعن محبته لأصحابه من الشمائل، فنحن في سلسلة الشمائل، أي هذه السلسلة تعني أن ندرس حياة هذا النبي الكريم، وأخلاقه، بشكل موضوعات لا بشكل قصة فيها تسلسل زمني.

الله عز وجل أمر المؤمنين أن يأخذوا عن النبي وأن يقتدوا به:

أيها الأخوة، إذا قلنا سنة النبي ماذا تعني؟ تعني أقواله، وأفعاله، وإقراره، تعني أقواله تشريع:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾

[سورة النجم الآيات: ٣-٤]

كلامه وحي غير متلو وهو معصوم وقد أمرنا أن نأخذ عنه:

﴿ وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا (٧) ﴾

[سورة الحشر]

وقد أمرنا أن نقتدي به في سيرته، قال تعالى:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾

[سورة الأحزاب الآية: ٢١]

الحركة التي ينبغي أن يتحركها الإنسان يجب أن تكون مطابقة لحركة النبي:

الشيء الثاني، أخوتنا الكرام الإنسان كائن متحرك ما الذي يحركه؟ حاجته إلى الطعام والشراب، وحاجته إلى الطرف الآخر الزواج، وحاجته إلى تأكيد الذات، هذه دوافع الحركة، الآن الإنسان كائن متحرك، هذه الحركة إما أن تكون فرضاً تتوقف على هذه الحركة سلامتك وسعادتك، وإما أن تكون واجباً أقل من الفرض، وإما أن تكون سنة، وإما أن تكون مباحاً، وإما أن تكون مكروهة، وإما أن تكون مكروهة كراهة تحريمية، وإما أن تكون حراماً، ما من حركة ولا سكنة ولا سير ولا وقوف ولا ذهاب ولا إياب ولا عطاء ولا منع ولا غضب ولا رضا إلا ويخضع لهذه التقسيمات؛ فرض، واجب، سنة، مستحب، مباح، مكروه كراهة تنزيهية، كراهة تحريمية، حرام، وأنت مكلف أن تتابع النبي عليه الصلاة والسلام، فلذلك نحن حينما ندرس شمائله كأنني أقول لكم ندرس ما ينبغي أن نعمله، ندرس ما ينبغي أن نقتدي به، إذاً موضوع دقيق جداً لأن

الإسلام كله كلمتان لا إله إلا الله توحيد، محمد رسول الله اقتداء، أي هناك كلمة التوحيد وكلمة الاتباع، تؤمن بأنه لا إله إلا الله وتتبع هذا النبي، بل إن دعوة الأنبياء جميعاً مختصرة بكلمتين:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾

[سورة الأنبياء الآية: ٢٥]

وما أرسلنا من رسول إلا نوحي إليه نقطتين، أنه لا إله إلا أنا، توحيد، فاعبدون الطاعة، أي الإسلام عقيدة وسلوك، منطلقات نظرية، تطبيقات عملية، فكر وحركة، إذاً الحركة التي ينبغي أن يتحركها الإنسان يجب أن تكون مطابقة لحركة النبي عليه الصلاة والسلام.

تعلم السيرة من خلال الشمائل فرض عين على كل مسلم:

أيها الأخوة، إذاً تعلم السيرة من خلال الشمائل يكاد يكون فرض عين على كل مسلم، لماذا؟ لأن الله حينما أمرك أن تأخذ عن النبي من لوازم هذا الأمر أن تعرف ما الذي أعطاك هذا النبي الكريم، وما الذي منعك، وما الموقف الذي ينبغي أن تقتدي به، والشيء الثابت أنه ما لا يتم الفرض إلا به فهو فرض، كالوضوء تماماً، الصلاة لا تتم إلا بالوضوء، فكما أن الصلاة فرض فالوضوء فرض، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا تتم السنة إلا به فهو سنة، إذاً ما دام كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، والأمر الإلهي:

﴿ وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا (٧) ﴾

[سورة الحشر]

إذاً من لوازم الائتمار بهذا الأمر أن نعرف ما الذي آتانا، وما الذي عنه نهانا، مثلاً النبي عليه الصلاة والسلام كان في بيت أحد أصحابه وقد توفاه الله، فسمع امرأة تقول: " هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله "، لو أنك سمعت هذا الكلام وسكت لا شيء عليك، لأن النبي عليه الصلاة والسلام مشرع سكوته أو إقراره ــ السكوت يعني الإقرار ــ يعد تشريعاً، هذه الكلمة غير صحيحة، قالت هذه المرأة: "هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله"، ماذا قال لها النبي عليه الصلاة والسلام؟

((وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ... وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ وَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي))

[رواه البخاري عن ابن شهاب]

أي واحد من أصحاب النبي لو سمع هذه الكلمة وبقي ساكتاً لا شيء عليه إلا النبي وحده لو سكت لكان سكوته يعني أن كلامها صحيح وكلامها غير صحيح، هذا سماه العلماء: التألي على الله، عود نفسك ألا تحكم على مصير إنسان قد يتوب ويسبقك، الآن هناك معصية لكن إياك أن تتكلم عن مصيره عند الله، الحديث عن مصيره عند الله نوع من التألي على الله، هذا مثل لأنه

سمع كلمة مخالفة للتوحيد وليس فيها أدب مع الله، أنت حينما تحكم على مستقبل إنسان كأنك تعلم الغيب ولا يعلم الغيب إلا الله، قال لها:

((وَمَا يُدْرِيكِ أَنّ اللّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ... وَاللّهِ إِنّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ وَاللّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللّهِ مَا يُفْعَلُ بِي))

إذاً أقوال النبي عليه الصلاة والسلام وأفعاله وإقراره تشريع، إذاً الحديث عن شمائل النبي حديث عن تشريع علينا أن نطبقه، علينا أن نقتدي به، علينا أن نسير على نهجه، علينا أن نجعله هدفاً لنا.

معرفة سيرة النبي فرض عين كي نقتدي به:

أنا قلت لكم قبل قليل: إن كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، وبطولتكم أيها الأخوة أن تفهموا الدين لا على أنه خمس عبادات، على أنه منهج تفصيلي، يبدأ من فراش الزوجية وينتهي بالعلاقات الدولية، وأن الذي ينبغي أن نتبعه، وأن نسير على منهجه، هو رسول الله، إذاً نحن في أمس الحاجة إلى هذه السلسلة من الدروس، كي نقتدي برسول الله، وكي نسير على نهجه، وكي نطبق سنته القولية، وكي نتأسى بسيرته العملية.

أخواننا الكرام، كلكم يعلم أن في الإسلام ما يسمى بفرض عين وفرض كفاية، أي التبحر في علم السيرة، التبحر في شمائل النبي، مراجعة الموضوع من مصادره القديمة، قراءة الروايات كلها، هذا فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الكل، لكن فرض العين أن هذه القصة القصيرة امرأة تقول: هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله، قال لها النبي عليه الصلاة والسلام؟

((وَمَا يُدْرِيكِ أَنّ اللّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ... وَاللّهِ إِنّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ وَاللّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللّهِ مَا يُفْعَلُ بِي))

هذه القصة يجب أن نأخذ بها جميعاً، أي أقول: والله أظنه صالحاً ولا أزكي على الله أحداً، لا يليق بك كعبد ضعيف أن تحكم على إنسان بل على مصيره هذا كبر وتألٍ على الله، والنبي نهى عنه بهذا النص.

إذاً معرفة سيرة النبي فرض عين كي نقتدي به، معرفة سنة النبي فرع عين كي ننصاع لأمره، أما التبحر، والتعمق، والتفرغ، والتأليف، ودراسة الروايات، ومتابعة هذه الروايات، والتدقيق في مصادرها، في مراجعها، هذا فرض كفاية إذا قام به البعض كعلماء السيرة سقط عن الكل.

الحركة اليومية للمسلم ما لم تكن وفق منهج الله لن نقطف من ثمار السيرة شيئاً:

أيها الأخوة، الآية مرة ثانية:

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾

[سورة الأنفال الآية: ٣٣]

أي نحن إذا طبقنا منهج النبي فنحن في حرز من عذاب الله، نحن في بحبوحة، نحن في أمن، نحن في قوة، نحن في غنى، وقد نفسر ما يصيب العالم الإسلامي كله من ضعف وتمزق لأن منهج النبي الكريم غائب من حياتهم، أما الأطر الإسلامية قائمة، هناك مساجد، هناك صلوات، هناك خطب، هناك قرآن يتلى، هناك سنة تدرس، لكن الحركة اليومية للمسلم ما لم تكن وفق منهج الله لن نقطف من ثمار هذه السيرة شيئاً، الله عز وجل يقول:

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾

[سورة الحجرات الآية: ٧]

شيء خطير، تذهب إلى بلاد بعيدة يعبدون موج البحر، يعبدون القمر، يعبدون الشمس، يعبدون الحجر، يعبدون النار، يعبدون شيئاً لا يليق أن أذكره، في اليابان يعبدون أصناماً من دون الله، والله عز وجل كرمنا في هذه الرسالة، إذاً:

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾

[سورة الحجرات الآية: ٧]

كل كلمة في السيرة النبوية منهج للإنسان:

الشيء الذي يلفت النظر أن هذا النبي كمله الله كمالاً مطلقاً:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

[سورة القلم الآية: ٤]

قَلِدْه في حلمه، قلده في رحمته، قلده في صدقه، قلده في أمانته، قلده في محبته للآخرين، هذا الذي نتمنى أن يكون واضحاً في هذا الدرس إن شاء الله، أي النبي الكريم تزوج السيدة خديجة وهي أكبر منه بخمسة عشر عاماً، هو في الخامسة والعشرين، وهي في الأربعين، وعلمنا من خلال هذا الدرس أن المرأة الصالحة لا شيء يعدلها، وكان يحبها حباً جماً، بل إنه حينما فتح مكة المكرمة، دعته بيوتاتها ليبيت عندهم فقال لهم: لا، انصبوا لي خيمة عند بيت خديجة، وركز لواء النصر أمام قبرها ليعلم العالم كله أن هذه المرأة التي في القبر هي شريكته في النصر.

هذا درس ثان، هل أنت وفي لزوجتك أم أولادك؟ هذه التي قبلت بك زوجاً وكنت في وضع صعب جداً، قبلت شظف العيش معك ألا ينبغي أن تذكر فضلها؟ هذا درس، صدقوا أيها الأخوة كل كلمة في السيرة منهج لنا.

شيء آخر أتمنى أن يكون واضحاً لديكم: أن الآخر يصف النبي أنه عبقري، أو مصلح اجتماعي كبير، أو أنه قائد فذ، هذا كله مرفوض، النبي عليه الصلاة والسلام نبي، لا تنزع عنه صفة النبوة، هو سيد الأنبياء والمرسلين، لا تقل عبقرياً، أو مصلحاً اجتماعياً، أو شخصية فذة، هذا لا يرفعه، يرفعه عند الله أنه نبي، وأنه مرسل ومعه رسالة.

معرفة النبي جزء من الدين والتعريف بالنبي جزء من الدعوة إلى الله:

شيء آخر الله عز وجل يقول:

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ ﴾

[سورة المؤمنون الآية: ٦٩]

وكأن الله جلّ جلاله يدعونا إلى معرفة نبينا، معرفة النبي جزء من الدين، والتعريف بالنبي جزء من الدعوة إلى الله، اعلم علم اليقين أن جزءاً من نشاطك ينبغي أن يتجه لمعرفة هذا النبي الكريم:

((سَلُوا الله لي الوسيلةَ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكونَ أنا))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

مقام أوحد في بني البشر يحتله النبي عليه الصلاة والسلام، اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آتِ سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم الوسيلة والفضيلة، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته، والمقام المحمود هو مقام لواحد من بني البشر، هو النبي عليه الصلاة والسلام، لذلك قوله تعالى:

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ ﴾

[سورة المؤمنون الآية: ٦٩]

دعوة إلى معرفة النبي:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾

[سورة سبأ الآية: ٤٦]

مدارسة أحوال النبي وشمائله وأقواله وأفعاله جزء من الدين لأنه القدوة:

إذاً: مدارسة أحوال النبي، وشمائل النبي، وأقوال النبي، وأفعال النبي، وكمالات النبي، جزء من الدين لأنه القدوة.

بالمناسبة دائماً الكمال والأخلاق من دون أن تجسد بإنسان لا قيمة لها، أي عظمة هذا الدين أن الكمال الذي أراده الله تراه برسول الله، أي السيرة حقيقة مع البرهان عليها، السيرة كمال مجسد في إنسان، السيرة هي أن إنساناً هو قرآن يمشي، والذي قال: الكون قرآن صامت والقرآن كون ناطق والنبي قرآن يمشي، كلام رائع، بل إن السيدة عائشة رضي الله عنها، تقول:

((كان خلقه القرآن))

[مسلم عن عائشة]

أخوانا الكرام، معرفة هذا النبي الكريم إنجاز كبير لكل مؤمن، يقول الله عز وجل:

﴿ وَكُـــلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾

[سورة هود الآية: ١٢٠]

إذا كان قلب سيد الخلق وحبيب الحق يزداد يقيناً بسماع قصة نبي دونه فلأن يمتلئ قلبنا إيماناً وتألقاً بمعرفة سيرة سيد الأنبياء من باب أولى.

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾

[سورة سبأ الآية: ٤٦]

هذا كله يؤكد أن معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم جزء من الدين بل إن قوله تعالى:

﴿ فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾

[سورة التغابن الآية: ٨]

وكل أمر يقتضي الوجوب.

أمية النبي عليه الصلاة والسلام وسام شرف له وأميتنا وصمة عار بحقنا:

شيء آخر إنك تعتز بأستاذ لك كبير، بعالم جليل، لأنه درس العلم على يد علماء كبار، فكيف بالنبي وقد تولى الله تعليمه؟

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى *ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴾

[سورة النجم الآية: ٥-٦]

وهو أمي، معنى أمي الفكرة دقيقة، لو جاءنا أعلى طبيب جراح بالعالم، يحمل بضع شهادات عليا، وله تجارب رائعة في العمل الجراحي، ودخل مطار دمشق وهو لا يتقن اللغة العربية، فإذا قلنا: هذا الطبيب اللامع والعالم الكبير هو أمي في اللغة العربية، كلامنا صحيح، هل تعني أمي أنه

جاهل؟ قد يكون أعلم العلماء لكن من حيث اللغة لا يتقنها، فالنبي لا يكتب ولا يقرأ، ولكن الله تولى تعليمه، لأن وعاءه الثقافي ما أراده الله أن يكون ممتلئاً بثقافة أهل الأرض، وتكلم النبي مع أصحابه، يسأله أصحابه مع كل كلمة يقولها هذه من ثقافتك أم من الوحي؟ فشاءت حكمة الله أن يكون وعاء النبي الثقافي فارغاً من كل ثقافة أرضية، وأن يملأ هذا الوعاء بوحي السماء، لذلك قال تعالى:

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾

[سورة النجم الآية: ٣-٤]

إذاً أمية النبي عليه الصلاة والسلام وسام شرف له، وأميتنا وصمة عار بحقنا.

النبي الكريم لولا أنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر:

أيها الأخوة: ولكن هو سيد الأنبياء والمرسلين، وسيد ولد آدم، وقد عصمه الله ويوحى إليه ولكنه بشر، لولا أنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾

[سورة الكهف الآية: ١١٠]

أي هذا الكلام ينضم إلى موضوع المقدمة، وفي دروس قادمة إن شاء الله سنتحدث طويلاً عن شمائله كمالاً كمالاً وموقفاً موقفاً، ولعل الله سبحانه وتعالى ينفعنا بهذه السلسلة من الدروس المتعلقة بشمائل النبي عليه الصلاة والسلام، وكل ما أرجوه أن تكون هذه الدروس صالحة للتطبيق اليومي حتى ننتفع بها، وحتى نستحق نصر الله عز وجل لقوله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾

[سورة الأنفال]

الإعجاز العلمي:

قيمة الإعجاز العلمي في حياتنا المعاصرة:

أيها الأخوة، كالعادة قسم آخر من الدرس يتعلق بالإعجاز العلمي، وفي هذه الدقائق سأتحدث لا عن موضوع محدد، ولكن عن قيمة الإعجاز العلمي في حياتنا المعاصرة، صدقوا ولا أبالغ أن

هذه المادة مادة الإعجاز العلمي تعد المادة الأولى في الدعوة إلى الله، لأن هذه المادة تؤكد أن الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن، إليكم بعض الأمثلة.

رواد الفضاء حينما صعدوا إلى الفضاء الخارجي، وركبوا مركبة فضائية، وهذه أعلى سرعة صنعها الإنسان، أيها الأخوة، ما الذي حدث؟ بعد أن تجاوز رواد الفضاء طبقة الهواء، وفي طبقة الهواء حادث فيزيائي اسمه انتثار الضوء، أشعة الشمس إذا سلطت على ذرات الهواء، ذارات الهواء عكستها على ذرات أخرى، فكان الضياء في الأرض، فلما تجاوز رواد الفضاء هذه الطبقة انتهت ظاهرة انتثار الضوء، ودخل الرواد في ظلام دامس، فصاح الرائد الأول بأعلى صوته: لقد أصبحنا عمياً لا نرى شيئاً، وكان أحد كبار علماء الذرة من مصر فاروق الباز في القاعدة التي انطلقت منها هذه المركبة، وسمع بأذنه قول رائد الفضاء لقد أصبحنا عمياً، لو فتحنا القرآن الكريم على قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ، لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾

[سورة الحجر الآيات:١٤-١٥]

آية نزلت قبل ألف وأربعمئة عام تتطابق تطابقاً تاماً مع كلمة قالها رائد الفضاء، وهو قد تجاوز مئة ألف كيلو متر نحو الفضاء، وبعد الأرض عن القمر ثلاثمئة وستين ألف كيلو متر، ما هذا الكلام؟ هذه شهادة الله أن هذا القرآن الكريم كلامه، وأن الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن الكريم.

أيها الأخوة الكرام، وكالة فضائية هي أضخم وكالة في العالم "ناسا"، عرضت صورة إذا تأملتها لا تشك لثانية واحدة أنها وردة جورية، بأوراقها الحمراء الداكنة، ووريقاتها الخضراء الزاهية، وكأسها الأزرق في الوسط، تأملها جيداً وردة جورية كُتب تحتها: صورة انفجار لنجم اسمه عين القط يبعد عن الأرض ثلاثة آلاف سنة ضوئية، والضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر، افتح القرآن الكريم على قوله تعالى:

﴿ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

[سورة الرحمن الآيات: ٣٧-٣٨]

هذا القرآن الكريم، تركب طائرة من أرقى الأنواع"٧٧٧"، في الدرجة الأولى، مقاعد وثيرة مكيفة، أمامه الصحف والمجلات، أنواع الأطعمة الفاخرة، فضائيات، برامج، وأنت على ارتفاع يقدر بأربعين ألف قدم، وتحمل هذه الطائرة أربعمئة إنسان، يأكلون، ويشربون، وينامون، ويستيقظون، وهي تجري بهم في الفضاء الخارجي، تفتح القرآن الكريم تقرأ قوله تعالى:

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴾

[سورة النحل الآية: ٨]

أنت راكب طائرة أين الحمار من الطائرة؟ لكن حينما تتابع الآية:

﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

[سورة النحل الآية: ٨]

فالطائرة، والسيارة، والحوامة، والباخرة، والسفينة، وكل وسائل النقل، والقطار السريع، أي تزيد سرعته عن ثلاثمئة وخمسين كيلو متر دخل في هذه الآية، إذاً هو كلام الله عز وجل.

الآيات الكونية منهج لنا للتفكر في خلق السماوات:

القرآن الكريم فيه تقريباً ألف وثلاثمئة آية تتحدث عن الكون، وأنا أرى أيها الأخوة، أن هذه الآيات الكونية هي منهج لنا للتفكر في خلق السماوات، لأن الله عز وجل يقول:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

[سورة آل عمران الآيات: ١٩٠-١٩١]

إذاً التفكر في خلق السماوات والأرض فرض على كل مسلم لقول النبي عليه الصلاة والسلام: "الويل لمن لم يفكر بهذه الآية".

لذلك إن شاء الله مع سلسلة هذه الدروس المتعلقة بشمائل النبي عليه الصلاة والسلام سيكون لنا في كل درس ما يساوي عشر دقائق من الإعجاز العلمي، والإعجاز العلمي يؤكد أن الذي خلق الأكوان هو الذي خلق الإنسان، وهو الذي أنزل القرآن الكريم، وهو المادة الأولى في الدعوة إلى الله، لأن هذا العصر يؤمن بالعلم، والمفاجأة الصاعقة أن بعض الكشوف الحديثة والمتفوقة تجد أصلها في القرآن الكريم، وعدد كبير جداً من علماء الأرض حينما يكتشفون شيئاً خطيراً يتميزون به، ثم يفاجؤون أن هذا الشيء الخطير قد ورد ذكره في القرآن الكريم قبل ألف وأربعمئة عام، فلا يسعهم إلا أن يؤمنوا بالله جلّ جلاله، وإلى درس آخر إن شاء الله.

والحمد لله رب العالمين

السيرة – الشمائل المحمدية ٢٠١٠ – الدرس (٠٢-) : مقدمة١، صفات النبي وشخصيته، القمح

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠١٠-٠٣-٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الفرائض شرط أساسي لسلامة الإنسان وسعادته :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني من دروس الشمائل النبوية، وتحدثنا في درس سابق عن أن معرفة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم القولية، ومعرفة سنته العملية أي سيرته فرض عين على كل مسلم، انطلاقاً من أنه ما لا يتم الفرض إلا به فهو فرض، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا تتم السنة إلا به فهو سنة، وتوضيحاً لذلك الوضوء فرض لأن الصلاة فرض ولا تتم إلا به، وحينما يقول الله عز وجل:

﴿ وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾

[سورة الحشر الآية : ٧]

كيف نأتمر بما آتانا وكيف ننتهي عما عنه نهانا إن لم نعرف ما الذي آتانا وما الذي عنه نهانا؟ إذاً هناك في حياتنا فرائض، هناك واجبات، هناك سنن مؤكدة، هناك سنن غير مؤكدة، هناك مستحبات، هناك مباحات، هناك مكروهات كراهة تنزيهية، هناك مكروهات كراهة تحريمية، هناك حرام، أي الفرائض شرط أساسي لسلامتك وسعادتك، والمحرمات تحرمك السلامة والسعادة، دقق فرائض، واجبات، سنن مؤكدة، سنن غير مؤكدة، مستحبات، مباحات، مكروهات كراهة تنزيهية، مكروهات كراهة تحريمية، ما من حركة، ولا سكنة، ولا نشاط في ليل أو نهار، في أي مكان، في أي زمان، إلا ويغطى بأحد هذه الأحكام الشرعية، ولكن الكمال الذي أراده الله لنا، مكارم الأخلاق التي بها نصل إلى الجنة، حيث ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، هذا الكمال لا يمكن أن يعيش في الكتب فقط، لا بدّ من أن نراه في إنسان متحرك، كيف أن الكون قرآن صامت، وكيف أن القرآن كون ناطق، إلا أن النبي عليه الصلاة و السلام قرآن يمشي، هذه الفضائل، هذه القيم، هذه المكارم، العطاء، الكرم، الشجاعة، الحلم، الصبر، هذه الفضائل، لا قيمة لها إطلاقاً إذا بقيت في الكتب.

أدب الحياة و أدب الكتب :

لذلك قالوا: والشيء بالشيء يذكر، هناك أدب الحياة، وهناك أدب الكتب، أدب الكتب ينبع من الكتب ويصب في الكتب، لكن أدب الحياة ينبع من الحياة، ويصب في الحياة، فلذلك الفضائل التي ينبغي أن نتحلى بها، مكارم الأخلاق التي ينبغي أن ندخرها حينما نلقى الله عز وجل، الكمال الذي يليق بالإنسان، هذه القيم التي جاء بها الأنبياء لا قيمة لها إطلاقاً إذا بقيت في الكتب، لابدّ أن تكون ممثلة في بشر يتحركون أمامنا، فلذلك تعد مهمة النبي صلى الله عليه وسلم على شقين، مهمة التبليغ؛ والتبليغ سهل أي إنسان آتاه الله طلاقة لسان، آتاه الله علماً، آتاه الله فكراً ثاقباً يبلغ، فإذا صحّ أن مهمة النبي صلى الله عليه وسلم الأولى هي التبليغ لكن المهمة الكبرى هي القدوة، أن يكون قدوة لنا.

ذلك أن كل إنسان هناك شخصية يكونها، وهناك شخصية يتمنى أن يكونها، وهناك شخصية يكره أن يكونها، المؤمن الصادق الشخصية التي يتمنى أن يقتفي أثرها، أن يسير على منهجها، أن يتبعها، هي شخصية النبي عليه الصلاة والسلام والدليل:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ ﴾

[سورة الأحزاب الآية : ٢١]

لكن في الآية ملمح دقيق إذا كنت ترجو الله، إلهي أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي، إذا كنت ترجو الله واليوم الآخر ينبغي أن تكون شخصية النبي عليه الصلاة والسلام هي القدوة والمثل.

معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض عين على كل مسلم :

لذلك بناء على هذه المقدمة لا بدّ أن تعرف جوانب هذه الشخصية، لا بدّ من أن تعرف شمائلها، لا بدّ من أن تعرف كمالها، لا بدّ من أن تعرف خصائصها، لذلك الله عز وجل يقول في محكم كتابه:

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ ﴾

[سورة المؤمنون الآية :٦٩]

يقول الله عز وجل:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾

[سورة سبأ الآية : ٤٦]

إذاً معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض عين على كل مسلم، لأن كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك، وما دام هذا الأمر يقتضي الوجوب من لوازم تنفيذ هذا الأمر أن تعرف جوانب هذه الشخصية الفذة الأولى في العالم، ورد في بعض الأحاديث:

((سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا))

[أخرجه مسلم عن ابن عمر]

كما قال النبي عليه الصلاة والسلام، لذلك نقول قبل أن نصلي: "اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آتِ سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة، وابعثه المقام المحمود"، هذا النبي عليه الصلاة والسلام، هذا القدوة، هذا المثل، هذا المخلوق الأول الذي أقسم الله بحياته، قال تعالى:

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

[سورة الحجر]

إدارة الوقت هو سلوك الأذكياء :

هذا العمر الذي نعيشه، نحن بِضْعَةُ أيام، كلما انقضى يومٌ انقضى بِضْعٌ منه، مرة كنت مديراً في ثانوية، في محافظة جنوبية، أذكر أنه بعد ثلاثين عاماً كان طالباً من طلابي في الصف العاشر، فإذا به يحتل منصباً رفيعاً دعاني إلى هذه البلدة، قلت: يا رب بين الزيارتين ثلاثون عاماً، كيف مضت هذه الأعوام الثلاثون؟ كلمح البصر، لذلك قالوا: الدنيا ساعة اجعلها طاعة، والنفس طماعة عودها القناعة، أي الزمن يمضي سريعاً، وأنت بضعة أيام وكلما انقضى يوم من حياتك انقضى بضع منك، مثلاً إنسان يملك سبعين ليرة كلما أنفق ليرة نقص ماله، فأنت لك عند الله عمر ثابت، انظر إلى عقرب الثواني كل حركة تشير إلى ثانية، معنى ذلك أن العمر قد قلّ ثانية، أنا لا أرى أن هناك عمل أليق بالمؤمن، ولا أكمل، من أن يدير وقته، وقت لمعرفة الله، وقت للتفكر في خلق السماوات والأرض، وقت لأداء العبادات، وقت للجلوس مع الأهل، وقت لتعليم الأولاد، وقت لوصل أخوانك الكرام، وقت للعمل، وقت للصلاة، إدارة الوقت هو سلوك الأذكياء، النبي عليه الصلاة والسلام في أحاديث كثيرة قال:

((اِغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ : شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ))

[أخرجه الحاكم والبيهقي عن ابن عباس وأحمد عن عمرو بن ميمون]

النبي عليه الصلاة والسلام كان المخلوق الأول في إدارة الوقت :

أيها الأخوة الكرام، إدارة الوقت شيء رائع، لأن الله عز وجل أقسم بعمر النبي عليه الصلاة والسلام، لأنه كان المخلوق الأول في إدارة الوقت.

((أكثروا من ذكر هادم اللذات ــ مفرق الأحباب ــ مشتت الجماعات))

[أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة]

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي عن سهل بن سعد و البيهقي عن جابر]

آية أخرى:

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ ﴾

[سورة المؤمنون الآية :٦٩]

ينبغي أن نعرفه، لذلك قالوا: مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تعرفه ثم لا تحبه، بل مستحيل وألف ألف مستحيل أن تحبه ثم لا تطيعه، وقد ورد في صفات النبي عليه الصلاة والسلام أنه من رآه بديهة هابه، ومن عامله أحبه، هل أنت كذلك؟ لك هيبة لكن إذا احتك بك الناس أحبوك؟ إذا احتك بك الناس هاموا بك؟ حينما يقول الله عز وجل:

﴿ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾

[سورة الحجرات الآية : ١٥]

هناك أمر إلهي أن تؤمن بهذا الرسول، مرة قال النبي عليه الصلاة والسلام، قبيل معركة بدر: لا تقتلوا عمي العباس، رجل حول النبي عليه الصلاة والسلام، قال: أحدنا يقتل أباه وأخاه في المعركة، وينهانا عن قتل عمه! لم يفهم هذا التوجيه، ثم تبين بعد حين أن عمه قد أسلم وهو هناك، وهو عينه في قريش، وكانت إدارة النبي عليه الصلاة والسلام في أعلى مستوى، فكل قرار تتخذه قريش يكون عند النبي عليه الصلاة والسلام، يقول هذا الرجل الصحابي: ظللت أتصدق عشر سنين رجاء أن يغفر الله لي سوء ظني برسول الله.

تواضع النبي عليه الصلاة والسلام ووفاؤه :

مقام النبوة، سيدنا عمر دخل على سيدنا رسول الله، وقد اضطجع على حصير، وأثر الحصير على جنبيه الشريف، أو على خده، فبكى عمر، قال : يا عمر ماذا يبكيك؟ قال: رسول الله ينام على الحصير وكسرى ملك الفرس ينام على الحرير، قال: "يا عمر إنما هي نبوة وليست ملكاً"، أنا لست ملكاً، إنما هي نبوة وليست ملكاً.

((هون عليك فإني ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة))

[ابن ماجه عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ]

تواضعه عجيب، كان النبي عليه الصلاة والسلام في سفر وأرادوا أن يعالجوا شاةً، فقال أحدهم: عليّ ذبحها يا رسول الله، فقال الثاني : وعليّ سلخها، وقال الثالث : عليّ طبخها، فقال عليه الصلاة والسلام : وعليّ جمع الحطب، فقالوا: نكفيك ذلك يا رسول الله، قال: أعلم أنكم تكفوني، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه.

والله أيها الأخوة بذكر محمد صلى الله عليه وسلم تتعطر المجالس، كان إذا دعاه أترابه إلى اللعب يقول: أنا لم أخلق لهذا.

وحينما جاءته رسالة الهدى، دعته زوجته لأخذ قسط من الراحة قال: يا خديجة انقضى عهد النوم.

لما فتح مكة ودعاه سادتها ليبيت عندهم، فقال لهم: انصبوا لي خيمة عند بيت خديجة، ليعلم العالم كله أن هذه المرأة التي في القبر هي شريكته في النصر.

ما هذا الوفاء! معه زوجة شابة في ريعان الشباب، فضجرت من كثرة ذكره لخديجة، خديجة في سن أمه عندما تزوجها كانت في سن الأربعين، هو في الخامسة والعشرين، وعنده فتاة في ريعان الشباب قالت له مرة: ألم يبدلك الله خيراً منها؟ قال: لا والله لا والله لا والله، ما هذا الوفاء؟ عندما فتح مكة، من في مكة؟ مكة التي أخرجته، مكة التي ائتمرت على قتله، مكة التي نكلت بأصحابه، مكة التي حاربته ثلاثة حروب، بدر، وأحد، والخندق، مكة التي تفننت بقتل أصحابه، ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، قال: فاذهبوا فأنتم الطلقاء. هذا العفو، يوم دانت له الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها، صعد المنبر واستقبل الناس باكياً وقال: من كنت أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه، ومن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليقتدْ منه، ومن كنت شتمتُ له عرضاً فهذا عرضي، ولا يخشى الشحناء، فإنها ليست من شأني، ولا من طبيعتي.

معرفة شمائل النبي فرض عين على كل مسلم لأنه قدوة لنا :

هذا الإنسان العظيم، هذا الذي بلغ سدرة المنتهى، هذا هو المخلوق الأول، هذا سيد الأنبياء والمرسلين، هذا سيد ولد آدم، أيعقل أن لا نعرفه؟ أيعقل أن لا ندرس شمائله، كمالاته، صدقوا ولا

أبالغ إن معرفة شمائل النبي عليه الصلاة والسلام، فرض عين على كل مسلم، لأنه قدوة لنا والدليل:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللّهَ كَثِيراً﴾

[سورة الأحزاب الآية : ٢١]

أدلة على ضرورة معرفة شمائل النبي :

أيها الأخوة، من الأدلة على ضرورة معرفة شمائل النبي قول الله عز وجل:

﴿ وَكُـلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾

[سورة هود الآية : ١٢٠]

إذا كان قلب سيد الخلق وحبيب الحق يزداد يقيناً بسماع قصة نبي دونه فلأن يمتلئ قلبنا إيماناً وتألقاً بمعرفة سيرة سيد الأنبياء من باب أولى، هناك آية حينما تقرأها لا شك أنه يقشعر بدنك:

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللّهِ ﴾

[سورة الحجرات الآية : ٧]

هو فينا، هو معنا، سنته بين أيدينا، أحاديثه بين أيدينا، مواقفه بين أيدينا، سيرته بين أيدينا، كمالاته بين أيدينا:

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللّهِ ﴾

[سورة الحجرات الآية : ٧]

أُميّة النبي الكريم وسام شرف له وأميتنا وصمة عار بحقنا :

أيها الأخوة، النبي عليه الصلاة والسلام أمي، أميته وسام شرف له، لأن الله عز وجل ما أراد من وعائه الثقافي أن يمتلئ من ثقافات الأرض، أراد أن يكون وعاؤه الثقافي خالياً من كل ثقافة أرضية، وأن يمتلئ بوحي السماء، لذلك:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾

[سورة النجم الآيات : ٣-٤]

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴾

[سورة النجم الآيات : ٥-٦]

لذلك أميته وسام شرف، وأميتنا وصمة عار، لأننا نحن ينطبق علينا الحديث الشريف:

((إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، وإنما الكرم بالتكرم))

[أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء]

الله تعالى شرّف الإنسان و كرّمه وأحسن إليه حينما سمح له أن يعبده :

شيء آخر، أنا أقول لكم دائماً: لو أن طفلاً عقب العيد زاره أحد أقربائه، فهذا الطفل ممتلئ فرحاً، بمبلغ من المال حصّله في أثناء العيد، قال لهذا القريب الزائر: معي مبلغ عظيم، كم نقدر هذا المبلغ؟ نقدره بحسب القائل، طفل صغير، في الصف الخامس، أبوه مهندس، دخله وسط، له بعض الأقارب، فإذا قال الطفل: معي مبلغ عظيم أي حوالي خمسمئة ليرة، دقق إذا قال مسؤول كبير بالبنتاغون: أعددنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً، نقدره بمئتي مليار دولار، نفس الكلمة قالها طفل فقدرناها بخمسمئة ليرة، وقالها مسؤول كبير بالبنتاغون فقدرناها بمئتي مليار دولار، فإذا قال ملك الملوك :

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾

[سورة النساء الآية : ١١٣]

والله أيها الأخوة سافرت شرقاً وغرباً، أناس في اليابان يعبدون ذكر الرجل، وفي الهند يعبدون الجرذان، وفي مكان يعبدون الشمس، وفي مكان يعبدون القمر، وفي مكان يعبدون الحجر، وفي مكان يعبدون النار، وفي مكان يعبدون موج البحر، الله عز وجل شرّفنا، وكرّمنا، وأحسن إلينا، حينما سمح لنا أن نعبده، نحن نعبد الواحد الديان، نعبد خالق السماوات والأرض، نعبد من بيده ملكوت كل شيء، الآن هل من الممكن أن نضغط الدين كله بكلمات؟ قال تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ (١١٠) ﴾

[سورة الكهف الآية : ١١٠]

الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق :

الآن دقق:

﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾

[سورة الكهف الآية : ١١٠]

أردت أن تقيم علاقة مع الله، أردت أن تحكم الصلة بينك وبين الله،

﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً ﴾

أوضح مثل مجند غر أقل رتبة في الجيش، وأعلى رتبة عماد أركان حرب، بينهما عشرات الرتب، سبعة ، وسبعتان، عريف أول، و ثمانية، وثمانيتان، ونجمة، ونجمتان، وتاج ونجمتان، ثم عماد، هذا المجند الغر الذي التحق منذ التطوع بإمكانه أن يدخل على العماد من دون إذنٍ؟ إلا

بحالة واحدة، إن رأى ابن هذا العماد يسبح فكاد يغرق، فألقى بنفسه وأنقذه، يدخل بلا إذن، وهذا العماد أركان حرب يقابله فوراً، ويحترمه، ويضعه جانبه، ويضيفه، أليس كذلك؟

﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً ﴾

اعمل عملاً صالحاً مع هرة، مع حيوان، مع صغير، مع يتيم، مع جائع، مع مضطهد، مع مظلوم، والله الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، ضمن البيت هناك طرق إلى الله سالكة، وأنت في الطريق هناك طرق إلى الله، وأنت في المسجد، وأنت في العمل.

لذلك أيها الأخوة هذا هو الدرس الثاني التمهيدي من شمائل النبي عليه الصلاة والسلام، وسوف إن شاء الله نقف ملياً عند هذه الشمائل، فلعل الله عز وجل يرفعنا بها.

الإعجاز العلمي :

القمح :

والآن ننتقل إلى القسم الثاني من الدرس وهي الفقرة العلمية، أحياناً أقرأ هذه الآية، فأحس أن لها أبعاداً كثيرة، هذه الآية:

﴿ وَلَآَمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾

[سورة النساء الآية : ١١٩]

كيف؟ الله عز وجل خلق القمح، نحن ننزع قشره ونأكل نشاءً ليس غير، أحياناً أقف معكم قليلاً عند المواد الخطيرة، والنافعة، والمفيدة، التي تنطوي عليها قشرة هذه الحبة، قال: هذه الحبة جعلها الله غذاء كاملاً، فيها غلافٌ خارجيّ يزن تسعاً في المئةِ من مجموع وزنِها، يُسمَّى عند الناس النُخالة، وفيها قشرةٌ رقيقةٌ تنطوي على مادةٍ آزوتيةٍ لا تزيدُ عن ثلاثةٍ في المئة من وزنِها، وفيها الرُّشَيْمُ الكائنُ الحيُّ الذي ينبتُ إذا توافرت له شروط الإنبات، ووزنُه لا يزيدُ على أربعٍ في المئة من وزنِ حبَّةِ القمحِ.

إذا جمعنا تسعة وثلاثة وأربعة أي ستة عشر، بقي أربعاً وثمانين في المئة نَشاءٌ خالصٌ، لكنها بيضاء ، أما الخبز مع قشره أسمر اللون، كل الخير، كل الفوائد، كل الفيتامينات، كل المعادن، كل المواد الثمينة في قشرة القمحة، ننزعها ونطعمها للدواب ونأكل النشاء الخالص هذه الحضارة. ماذا نفعل نحن؟ ننزعُ عن القمحةِ غلافَها، وغشاءَها، ولا يبقى لنا إلا النّشاءُ الخالصُ، أمّا هذا

الغلافُ الذي يسمّيه الناس نُخالةً، ففيه ستةُ فيتامينات، فيتامين ب١، ب٢ ب٦...، و في هذا الغلافِ مادةٌ فسفوريةٌ هي غذاءٌ للدماغِ نطعمها نحن للدواب، وفي هذا الغلافِ حديدٌ يَهَبُ الدمَ قوةً وحيويةً، ويُعِينُ على اكتسابِ الأوكسجين مِنَ الرئتين، وفي هذا الغلافِ الكالسيوم الذي يبني العظامَ، ويقوّي الأسنانَ، وفي هذا الغلافِ السيلكون الذي يقوّي الشعرَ ويزيدُه قوةً ولمعاناً، وفي هذا الغلافِ اليود الذي ينشط عملَ الغدّةِ الدَرَقِيّةِ، ويُضفِي على آكلِه السكينةَ والهدوءَ، اليود له مفعول المسكن، وفيه البوتاسيوم، والصوديوم، والمغنيزيوم، تدخلُ هذه المعادنُ كلُّها في قشرة القمح الذي نطعمها للدواب.

أيها الأخوة، أما نحن نأكل النشاء الصافي الذي كما وَصَفَه بعضُ الأطباءِ غراءٌ جيدٌ للمعدةِ، ائت بلب الخبز الأبيض اضغطه ثم ضعه في كأس ماء لا ينحل أبداً، لأنه غراء.

فوائد قشرة القمح :

لكن الإبداع الإلهي في خلق هذه القشرة بما فيها من فوائد هو من أجل أن نأكلَ القمحَ بقشرِه، حتى نستفيدَ مِن هذه الموادِ التي أودَعَهَا اللهُ في قشرةِ القمحِ ، والله أعلم كل الأدوية التي تعالج الإمساك والإمساك ينتج عنه خمسين مرضاً، كل الأدوية التي تعالج الإمساك هذه الأدوية موجودة في قشرة القمح، لا يوجد إنسان يأكل خبز مع نخالته معه إمساك، أي أكبر مادة فعالة في تنظيم الأمعاء النخالة، لذلك جميع الأدوية التي تعين على الهضم مأخوذة من قشر القمح.
إذا غُلِيَتْ هذه القشورُ بالماءِ الساخنِ كانتْ مهدئةً للسعالِ والزكامِ، وإذا شُرِبَ هذا المغليُّ كان قابضاً للأمعاءِ، وكان دواءً لتقرّحاتِ المعدةِ وللزحار، وهو غذاء للجلدِ ووقاية له من أمراضِه، وعلى رأس هذه الأمراض الأكزيما .
وقاية للجلد من الأمراض، قابض للأمعاء، دواء لتقرحات المعدة، وللزحار، مهدئ للسعال والزكام، لذلك حين نأكل كما أراد الله لنا أن نأكل، وحين نطبق سنة النبي عليه الصلاة والسلام في الأكل، نضمن لأنفسنا الصحةَ والبُعدَ عن الأمراض .

((سئل الصحابي الجليل سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ : " هَلْ رَأَيْتَ النّقِيَّ ــ الطحين المنخول ــ قَالَ : مَا رَأَيْتُ النّقِيَّ حَتّى قُبِضَ رَسُولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فَقُلْتُ : فَهَلْ كَانَ لَهُمْ مَنَاخِلُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللّهِ صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ : مَا رَأَيْتُ مُنْخُلاً حَتّى قُبِضَ رَسُولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، قُلْتُ : فَكَيْفَ كُنْتُمْ تَأْكُلُونَ الشّعِيرَ غَيْرَ مَنْخُولٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، كُنّا نَنْفُخُهُ فَيَطِيرُ مِنْهُ مَا طَارَ وَمَا بَقِيَ ثَرَّيْنَاهُ "))

[ابن ماجه عن عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي حَازِمٍ]

وورد في الأثر أن أول بدعة ابتدعها المسلمون بعد وفاة رسول الله نخل الدقيق.

والحمد لله رب العالمين

السيرة – الشمائل المحمدية ٢٠١٠ – الدرس (٠٣-) : مقدمة٢، صفات الرسول، السواك

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠١٠-٠٤-٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام واسعة جداً:

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثالث من دروس الشمائل النبوية، ولا زلنا في المقدمة.
أيها الأخوة الكرام، موضوع دقيق وهو أن الله عز وجل يقول:

﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾

[سورة التوبة الآية: ١٠٣]

ويقول أيضاً:

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

[سورة الأحزاب الآية: ٥٦]

الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام واسعة جداً، منها أن تقول: اللهم صلِّ على سيدنا محمد، منها أن تقرأ سيرته، منها أن تتأمل في شمائله، منها أن تقف على كمالاته، منها أن ترى منهجه، منها أن تطبق منهجه، أي: أية علاقة برسول الله، علاقة علمية، علاقة اتباع، علاقة طاعة، علاقة حب، علاقة تعظيم، علاقة إكبار، أية علاقة برسول الله تعد هذه العلاقة نوعاً من الاتصال به، وتعد هذه العلاقة نوعاً من الصلاة عليه، وكأن الله عز وجل:

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾

هذه الصلاة من الله عز وجل وملائكته على النبي تعني أنه أقرب مخلوق إلى الله، لأنه قريب من الله كان نموذج الكمال البشري، لأن الله الذات الكاملة، الذات الكاملة الكمال المطلق، أية جهة اتصلت بالكمال المطلق اشتقت الكمال، أي لا تصدق إنساناً له صلة بالله قاسي القلب، مستحيل، أو إنه يكذب، إنه لا يتصل بالله، إنسان يتصل بأصل الكمال، أصل الجمال، أصل النوال، إنسان يتصل بصاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى، إنسان يتصل بالله وله قلب قاس؟! إنسان يتصل بالله ويكذب؟! إنسان يتصل بالله ويخدع؟! إنسان يتصل بالله ويسقط؟! مستحيل.

النبي عليه الصلاة والسلام هو المخلوق الأول رتبة:

النبي عليه الصلاة والسلام يعد المخلوق الأول رتبة:

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾

[سورة الزخرف]

أول عابد لله، المخلوق الأول لقد أقسم الله بعمره الثمين، إله عظيم يقسم بعمر مخلوق:

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

[سورة الحجر الآية: ٧٢]

إذاً::

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾

هذا الاتصال المحكم المتين من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله، إذاً هو منبع الكمال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ ﴾

أي أنا أتجلى عليه، يا أيها المؤمن اتصل به، نوع من الصلة، إذا وقفت على سيرته هذه صلة، إذا وقفت على كمالاته على منهجه، على رحمته، على عدله، على حرصه على هداية الخلق، هذا كله نوع من الصلة، أي أن تعيش مع النبي عليه الصلاة والسلام، صدقوا ولا أبالغ المؤمن الصادق يعيش مع النبي وأصحابه، طبعاً هو لا يعيش معهم بجسمه، ألف وأربعمئة عام، لكن تصوراته كلها كيف كان النبي عليه الصلاة والسلام يعامل أهله؟ كيف كان يعامل أصحابه؟ كيف كان رحيماً؟ كيف كان أباً كاملاً؟ كيف كان أخاً عزيزاً؟ كيف كان زوجاً صادقاً؟ كيف كان زعيماً مخلصاً؟ كيف كان قائداً شجاعاً؟ كيف كان رئيساً فذاً؟

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

معرفة رسول الله معرفة شطر الدين:

أيها الأخوة الكرام، بلا مبالغة كلمة الإسلام الأولى: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فمعرفة رسول الله معرفة شطر الدين، نصف الدين، معرفة الله على أنه إله واحد كلمة التوحيد وكلمة الرسالة، إذا أردت أن تضغط الإسلام كله بكلمتين، لا إله إلا الله محمد رسول الله، الكلمة الأولى كلمة التوحيد، والدليل:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ ﴾

[سورة الأنبياء الآية: ٢٥]

الآن بعد

﴿ إِلّا نُوحِي إِلَيْهِ ﴾

تلخيص دعوة الأنبياء جميعاً:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنّهُ لَا إِلَهَ إِلّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾

[سورة الأنبياء الآية: ٢٥]

توحيد وعبادة، الفكر توحيد والحركة عبادة، المنطلق النظري توحيد، والسلوك العملي عبادة، الإسلام عقيدة وسلوك، منطلقات نظرية، تطبيقات عملية، حركة فكرية، وحركة بالجوارح، شيء تقنع به، وشيء تتحرك إليه، فأول كلمة لا إله إلا الله، الكلمة الثانية هذا الكمال الذي دعينا إليه، هذا الكمال الذي ينبغي أن نكون عليه ممثل في شخص النبي عليه الصلاة والسلام:

خلقت مبرأ من كل عيـــــب   كأنك قد خلقت كما تشاء

***

أحد أسباب سعادة الإنسان أن يعيش مع رسول الله في فكره وتصوراته:

أيها الأخوة، أحد أسباب سعادة الإنسان أن يعيش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن يعيش في فكره، في تصوراته، في مشاعره، في أحاسيسه، أن يقرأ سيرته، أن يقرأ شمائله، لأنه الإنسان الكامل، الإنسان الموصول بالله عز وجل، إذاً،

﴿ إِنّ اللّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلّونَ عَلَى النّبِيّ ﴾

ورد في بعض الأحاديث:

((سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا))

[أخرجه مسلم عن ابن عمر]

اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آتِ سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم الوسيلة والفضيلة، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته، هذا هو المقام المحمود:

﴿أَقِمِ الصّلَاةَ لِدُلُوكِ الشّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللّيْلِ وَقُرْآَنَ الْفَجْرِ إِنّ قُرْآَنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً*وَمِنَ اللّيْلِ فَتَهَجّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً ﴾

[سورة الإسراء الآيات: ٧٨-٧٩]

سلوا لي المقام المحمود فإنه مقام لا ينبغي إلا لواحد من خلقه، وأرجو أن أكون أنا، إذاً أنت تعيش في سعادة إذا كنت مع رسول الله.

تعطر المجالس بذكر الصالحين:

أيها الأخوة:

﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾

[سورة التوبة الآية: ١٠٣]

هناك صحابي يجلس في الطريق ويبكي اسمه حنظلة، مرّ به الصّديق، رآه يبكي قال: مالك يا حنظلة تبكي؟ قال: نافق حنظلة، قال له: ولِمَ يا أخي؟ قال حنظلة: نكون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن والجنة كهاتين، فإذا عدنا إلى بيوتنا وعافسنا الأهل ننسى، أي كل واحد منا إذا أتى إلى بيت من بيوت الله، إذا أتى إلى المسجد، واستمع إلى درس علم، هناك حالة في المسجد مريحة.

إنّ بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوّارها هم عمّارها، فطُوبى لِعَبْد تطهّر في بيته ثمّ زارني، الآن دقق وحُقّ على المزور أن يُكْرِم الزائر، أنا لا أبالغ ولا أصدق أن إنساناً يأتي إلى بيت من بيوت الله بنية التقرب إلى الله ولا يشعر براحة نفسية وهو في المسجد، وحُقّ على المزور ــ من المزور؟ هو الله ــ أن يُكْرِم الزائر، فلذلك أنت إذا كنت في بيت من بيوت الله تشعر بسعادة، فكيف إذا كنت مع رسول الله؟ لذلك قال له: نافق حنظلة، فسيدنا الصديق قال: أنا كذلك يا حنظلة ــ من أروع ما في الموقف التواضع ــ انطلق بنا إلى رسول الله، فانطلقا إلى النبي عليه الصلاة والسلام وحدثاه بهذا الحال، فقال عليه الصلاة والسلام: "نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا، ولا تنام قلوبنا، أما أنتم يا أخي فساعة وساعة، لو بقيتم على الحال التي أنتم بها عندي، لصافحتكم الملائكة، ولزارتكم في بيوتكم".

هذا الكلام دقيق جداً أي لا بدّ من أن يكون لك حال وأنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، لو بقيتم على الحال التي أنتم عليها عندي، لصافحتكم الملائكة، ولزارتكم في بيوتكم، فلذلك:

﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾

[سورة التوبة الآية: ١٠٣]

لذلك بأي مجلس إذا ذكر النبي عليه الصلاة والسلام، وإذا ذكر أصحابه الكرام، تعطر المجلس، بل كما قيل: بذكر الصالحين تتعطر المجالس، والعياذ بالله وبذكر اللؤماء تتعكر المجلس، اجلس في مجلس وتحدث عن إنسان لئيم بخيل، قاسٍ، زوج سيئ، ابن عاق، زوجة متفلتة، تحس بضيق، الكمال مسعد والنقص مشقي، إذاً:

﴿ إِنّ اللّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلّونَ عَلَى النّبِيّ يَا أَيّهَا الّذِينَ آمنوا صَلّوا عَلَيْهِ وَسَلّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

معرفة شمائل النبي فرض عين على كل مسلم:

أيها الأخوة الكرام، أنا أؤكد لكم أن معرفة شمائل النبي عليه الصلاة والسلام، ومعرفة سيرة النبي، ومعرفة أحاديث النبي، فرض عين على كل مسلم، بل إني أقول: أيها الأخ الكريم لماذا تصلي؟ الجواب البديهي لأن الصلاة فرض، فإذا أثبت لك أن معرفة شمائل النبي فرض عين على كل مسلم، الدليل ألم يقل الله:

﴿ وَمَا آَتَاكُمُ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾

[سورة الحشر الآية: ٧]

هذا الأمر يقتضي التطبيق، كل أمر يقتضي الوجوب فكيف تطبق ما جاء به النبي إن لم تعرف ما الذي جاء به؟ من لوازم تطبيق هذا الأمر أن تعرف ما الذي جاء به، وما الذي عنه نهى، وكيف كان في سيرته، في بيته، مع أصحابه، في سلمه، في حربه، فلذلك أحد أكبر المواد الدينية في التعليم الإسلامي أن نعرف شمائل النبي عليه الصلاة والسلام.

أقوال النبي وأفعاله وإقراره تشريع و كلّ هذا بين أيدينا:

أيها الأخوة، إذا قال الله عز وجل:

﴿ وَاعْلَمُوا أَنّ فِيكُمْ رَسُولَ اللّهِ ﴾

[سورة الحجرات الآية: ٧]

هل تعرفون قيمة هذه النعمة؟ هناك أديان تعبد البقر، أديان تعبد الشجر، تعبد الحجر، تعبد الشمس والقمر، تعبد آلهة متعددة، فإذا كرمنا الله عز وجل وكنا أتباع النبي الأول والرسول الأعظم، وكنا أتباع سيد الأنبياء والمرسلين، وسيد ولد آدم أجمعين، هذه نعمة لا تعدلها نعمة، لذلك قال تعالى:

﴿ وَاعْلَمُوا أَنّ فِيكُمْ رَسُولَ اللّهِ ﴾

[سورة الحجرات الآية: ٧]

هو فينا، سيرته بين أيدينا، شمائله بين أيدينا، أخلاقه بين أيدينا، أنا أعتقد أنه ما من إنسان على وجه الأرض كتبت ونقلت إلينا دقائق حياته، وتفاصيل حياته، وكل ظروفه، في بيته، ومع أصحابه، وفي سلمه، وفي حربه، كما نقلت إلينا أفعال النبي عليه الصلاة والسلام، طبعاً ينبغي ألا يغيب عنكم أن أقوال النبي عليه الصلاة والسلام تشريع، وأن أفعاله تشريع، وإن إقراره تشريع، بل إنهم قالوا: إن سنة النبي عليه الصلاة والسلام تعني أقواله، وتعني أفعاله، وتعني إقراره.

سماع دروس شمائل النبي خطوة نحو معرفة هذه الشمائل:

لذلك:

﴿ فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾

[سورة آل عمران الآية: ١٧٩]

أخي أنا مؤمن برسول الله، ما معنى أنك مؤمن برسول الله؟ هل قرأت سيرته؟ هل قرأت شمائله؟ هل قرأت أحاديثه؟ كلمات الآن مفرغة من المضمون، تقول أنت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، متى جلست وقرأت سيرته؟ متى جلست وقرأت سننه؟ متى قرأت شمائله؟ إذاً لا أبالغ مجيئكم إلى هذا المسجد لسماع دروس شمائل النبي عليه الصلاة والسلام هو خطوة نحو معرفة هذه الشمائل، بل إن الله عز وجل يعجب:

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ ﴾

[سورة المؤمنون الآية: ٦٩]

شيء طبيعي أن تعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن تعرف شمائله، سيرته، أخلاقه، كمالاته:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾

[سورة سبأ الآية: ٤٦]

صفات النبي عليه الصلاة والسلام:

أي لمرة واحدة في دروس الشمائل لا بدّ أن نقف وقفة متأنية عن شكل النبي عليه الصلاة والسلام، السبب إنك إذا رأيت في الرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تكن صفاته كالصفات التي وردت في سيرة النبي معنى ذلك ومع الأسف الشديد أنك لم ترَ رسول الله، لا تكون قد رأيت رسول الله إلا إذا رأيته على الصفات التي وردت في كتب السيرة، مرة قال لي إنسان: رأيت النبي عليه الصلاة والسلام، رأيته أسمر اللون، طويلاً جداً، قلت: هذا ليس برسول الله، يجب أن ترى رسول الله على الهيئة والشكل واللون الذي ورد في كتب السيرة، فكان عليه الصلاة والسلام:

((أحسن الناس وجهاً، وأحسنه خلقاً، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير))

[البخاري عن البراء بن مالك]

و كان:

((كان عليه الصلاة والسلام رجلاً مربوعاً ـ أي متوسط الطول ـــ بعيد ما بين المنكبين ـ أي عريض المنكبين ـ عليه حلة حمراء ما رأيت شيئاً قط أحسن منه صلى الله عليه وسلم))

[مسلم عن البراء]

لذلك قال حسان بن ثابت:

وأجمل منك لم تر قط عيني وأكمل منك لم تلد النساء

خلقت مبرّأً من كل عيـــب كأنك قد خلقت كما تشاء

***

((لَيْسَ بِالطَّوِيلِ وَلَا بِالْقَصِيرِ ضَخْمُ الرَّأْسِ وَاللِّحْيَةِ، شَثْنُ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ ـ عريض الكفين والقدمين ـ مُشْرَبٌ وَجْهُهُ حُمْرَةً ـ كان لونه أزهر أي أبيض على أزهر ـ إِذَا مَشَى تَكَفَّأَ تَكَفُّؤًا كَأَنَّمَا يَتَقَلَّعُ مِنْ صَخْرٍ لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

[أحمد عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

وصف رائع لشكل النبي عليه الصلاة والسلام:

وروى البيهقي عَنْ أبي معبد الخزاعي:

((أن رسول الله صلى الله عليه و سلم خرج ليلة هاجر من مكة إلى المدينة هو وأبو بكر وعامر بن فهيرة ودليلهم عبد الله بن أريقط الليثي، فمروا بخيمة أم معبد الخزاعية وكانت امرأة برزة ـ أي جليلة ـ مسنة، جلدة ـ أي قوية ـ تحتبي ـ أي أنها تضم يديها إلى ركبتيها أثناء الجلوس ـ وتجلس بفناء الخيمة، وتطعم وتسقي من يمر بها، فسألوها لحماً أو تمراً، فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك، قالت: لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى ـ أي ما أحوجناكم بل كنا نضيفكم ـ ولو عندنا ما بعناكم بل كنا نضيفكم، وإن القوم مرملون ـ أي أصابتهم سنة جدباء ـ فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة في كسر خيمتها ـ أي في جانب خيمتها ـ فقال: « ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ » قالت: شاة خلفها الضعف عن الغنم ـ أي إنها هزيلة ضعيفة ـ قال: فهل بها من لبن؟ قالت: هي أجهد من ذلك ـ أي أضعف ـ فقال: تأذنين لي أن أحلبها؟ قالت: إن كان بها حلب فاحلبها، وفي رواية: نعم بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حلباً فاحلبها، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشاة فمسحها، وذكر اسم الله، ومسح ضرعها، وذكر اسم الله، وفي رواية مسح ظهرها، ودعا بإناء لها يربض الرهط ـ أي يشبع الجماعة ـ فهذه الشاة الضعيفة الهزيلة المريضة درت فحلب فيها ثجاً ـ أي كمية غزيرة ـ حتى ملأ الوعاء فسقاها ـ بمن بدأ النبي عليه الصلاة والسلام؟ بصاحبة الشاة ـ وسقى أصحابه فشربوا واحداً واحداً حتى إذا شربوا جميعاً شرب صلى الله عليه وسلم، فكان آخر أصحابه شرباً، لذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام: ساقي القوم آخرهم شرباً ـ يشرب نصف

العصير لوحده ثم يعطي الباقي ــ ساقي القوم آخرهم شرباً، ثم حلب فيها ثانياً عوداً على بدء، وترك عندها هذا الحليب، وقال لها: ارفعي هذا إلى أبي معبد إذا جاءك، فما هذا الفهم! سقاها أولاً وترك لزوجها ثانياً وسقى أصحابه وشرب آخرهم.

ثم ارتحلوا عنها فقال: ما لبثت أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً، فلما رأى اللبن قال: من أين لكم هذا اللبن يا أم معبد ولا حلوب في البيت؟ قالت: لا والله إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك كان من حديثه كذا وكذا وفي رواية كيت وكيت، قال: صفيه يا أم معبد؟ قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة، متألق، حسن الخلق، قوي، مليح الوجه، لم تعبه ثجلة ــ أي كبر البطن ــ ولم تزر به صقلة ــ أي صغر الرأس ــ وسيم قسيم ــ أي يجمع من كل حسن قسماً ــ في عينيه دعج ــ والدعج شدة سواد حدقة العين ــ وفي أشفاره وطف ــ أي كثرة شعر الحاجبين والعينين ــ وفي صوته صحل ــ أي بحة محببة ــ أحور ــ أي شدة بياض العين وسوادها ــ أكحل ــ كأن عينيه مكتحلتان ــ أزج ــ أي دقيق طرف الحاجبين ــ أقرن ــ أي حاجباه متصلان ــ في عنقه سطع ــ أي ارتفاع عنقه، وهذه صفة بالإنسان محببة ــ وفي لحيته كثاثة، إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، حلو المنطق، كلامه فصل لا نزر ولا هذر ــ لا كلام قليل جداً إيجاز مخل ولا إطناب ممل ــ كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن ــ حبات لؤلؤ ــ أبهى الناس وأجملهم من بعيد وأحسنهم من قريب، ربعة لا تشنؤه من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، أنضر الثلاثة منظراً وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفون به، إن قال استمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفود مشحود، لا عابس ولا مفند ــ ليس عنده كلام ليس له معنى، ولا عنده نقد جارح ــ قال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش الذي تطلبه في أثناء الهجرة، ولو كنت وافقته لالتمست أن أصحبه ولأفعلنه إن وجدت إلى ذلك سبيلاً، ثم هاجرت مع زوجها على النبي عليه الصلاة والسلام وأسلما))

[البيهقي عَنْ أبي معبد الخزاعي]

هذه صفة النبي عليه الصلاة والسلام، وصف دقيق دقيق، وصف رائع لشكل النبي عليه الصلاة والسلام.

النبي الكريم كان فخماً مفخماً يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر:

أيها الأخوة، يقول بعض أصحابه، ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((كَانَ كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي جَبْهَتِهِ وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَسْرَعَ فِي مِشْيَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَأَنَّمَا الْأَرْضُ تُطْوَى لَهُ إِنَّا لَنُجْهِدُ أَنْفُسَنَا))

[أحمد عن أبي هريرة]

إذا سرنا معه.

وعن أحد أصحاب رسول الله قيل له: صف لنا رسول الله؟ قال: لو رأيته رأيت الشمس طالعةً، بعضهم قال: كان فخماً مفخماً يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر.

على كلٍّ سيدنا حسان بن ثابت الشاعر النبوي يقول:

أحسن منك لم ترَ قط عيني وأجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرأ من كـل عيـب كأنك قد خلقت كما تشاء

***

لذلك كان النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي))

[الجامع الصغير بسند صحيح عن ابن مسعود]

إن شاء الله في الدرس القادم نبدأ بتفاصيل شمائل النبي عليه الصلاة والسلام، الدروس الثلاثة الأولى كانت مقدمة.

الموضوع العلمي:

السواك:

عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((السِّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ "))

[البخاري عن عَائِشَةَ]

ورد في مجلة مشهورة تصدر في بعض البلاد العربية الشقيقة مقال لعالم متخصص في علم الجراثيم والأوبئة من ألمانيا، يقول: قرأت عن السواك الذي يستعمله العرب كفرشاة أسنان في كتاب لرحالة زار البلاد العربية، وعرض الكاتب الأمر بأسلوب ساخر لاذع، اتخذه دليلاً على تأخر هؤلاء الناس الذين ينظفون أسنانهم بأعواد، يقول هذا العالم الألماني: ولكني أخذت هذه المسألة من وجهة نظر أخرى، وفكرت، لماذا لا يكون وراء هذه القطعة من الخشب، والتي أسميتها فرشاة الأسنان العربية، حقيقة علمية؟ وتمنيت لو استطعت إجراء التجارب عليها.

عالم ألماني عنده معلومات تسخر من السواك، أناس متخلفون ينظفون أسنانهم بأعواد لكن هذا العالم قال لعل في هذه الأعواد شيئاً لا نعرفه، قال: ثم سافر زميل لي إلى السودان، وعاد ومعه

مجموعة منها، وفوراً بدأت بإجراء تجاربي عليها، سحقتها، وبللتها، ووضعت المسحوق المبلل على مزارع الجراثيم، فظهرت لي المفاجأة التي لم أكن أتوقعها، ظهرت على مزارع الجراثيم الآثار نفسها التي يؤثر بها البنسلين، البنسلين مادة فعالة في قتل الجراثيم.

هذا ما قاله العالم الألماني المتخصص في علم الجراثيم والأوبئة، أي حينما جاء بهذا السواك، وجعله مسحوقاً و وضع هذا السواك المسحوق على هذه المزرعة من الجراثيم فماتت كل الجراثيم معنى ذلك مفعول السواك كمفعول البنسلين تماماً هذا كلام العالم الألماني.

فوائد السواك:

لذلك قال ابن القيم: "في السواك عدة منافع، يطيب الفم، ويشد اللثة، ويقطع البلغم، ويجلو البصر، ويذهب بالحفر، ويصحح المعدة، ويصفي الصوت، ويعين على هضم الطعام، ويسهل مجاري الكلام، وينشط القراءة، والذكر، والصلاة، ويطرد النوم، ويرضي الرب، ويعجب الملائكة، ويكثر الحسنات، وقال: أصلح ما اتخذ السواك من خشب الأراك ونحوه، ولا ينبغي أن يؤخذ من شجرة مجهولة".

لذلك أيها الأخوة، هذا العود الذي خلقه الله عز وجل خلقه خصيصاً لتنظيف الأسنان لأنه قاتل للجراثيم، الله عز وجل هناك آيات دالة على عظمته، وأن كل شيء أمر به النبي ليس من عنده، ولا من خبرته، ولا من تجاربه، ولا من اجتهاده، لكنه وحي يوحى.

والحمد لله رب العالمين

السيرة – الشمائل المحمدية ٢٠١٠ – الدرس (٠٤-) : نظافة النبي عليه الصلاة والسلام، آلية مواجهة البرد و الحر عند الإنسان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠١٠-٠٤-١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

النظافة من الإيمان:

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع من دروس الشمائل النبوية، ومع الموضوع الأول وهو: نظافته صلى الله عليه وسلم، في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أنه قال:

((مَا مَسِسْتُ حَرِيرًا وَلَا دِيبَاجًا أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا شَمِمْتُ رِيحًا قَطُّ أَوْ عَرْفًا قَطُّ أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ أَوْ عَرْفِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

[متفق عليه عن أنس رضي الله عنه]

هذا يؤكد أن النظافة من الإيمان، وأن المؤمن نظيف، وأن النظافة لها معان واسعة جداً، قد تبدأ بنظافة الثوب، ونظافة الجسم، ونظافة المكان، ونظافة البيت، ونظافة الدكان، وقد تنتهي بنظافة النفس، ونظافة الفكر، ونظافة الأهداف، هناك أهداف نظيفة، وهناك أهداف قذرة، هناك سلوك قذر هناك سلوك نظيف، فالنظافة معنى واسع جداً قد يضيق المعنى، فتتجه إلى المادة، بيت نظيف، ثوب نظيف، جسم نظيف، وقد يتوسع المعنى فتشمل الفكر، والنفس، والأهداف، والوسائل، المؤمن مثلاً أهدافه نظيفة، معلنة، واضحة، صارخة، لا يوجد عنده شيء معلن وشيء غير معلن، تركتكم على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا ضال، أهدافه نظيفة، نشر هذا الدين بلا تآمر، بلا مكر، بلا خداع.

صدقوا ولا أبالغ، المؤمن مرتبة عالية جداً، الإيمان مرتبة أخلاقية، لا يوجد مؤمن يغش، يحتال، يمكر، له موقف معلن وموقف مبطن، له ظاهر وله باطن، له خلوة وله جلوة، أبداً، المؤمن واضح، تركتكم على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا ضال.

هذا هو الإيمان، الإيمان وضوح، أهداف واضحة، وسائل واضحة، لا يوجد عنده شيء يستحي به، لا يوجد عنده شيء يعتذر منه، ورد في بعض الأحاديث:

((إياك وما يعتذر منه))

[أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عمر]

فهذا الإيمان نظيف جداً.

الإيمان مرتبة علمية وأخلاقية و جمالية:

على كلٍّ ولنبدأ بنظافة الظاهر:

((مَا مَسِسْتُ حَرِيرًا وَلَا دِيبَاجًا أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا شَمِمْتُ رِيحًا قَطُّ أَوْ عَرْفًا قَطُّ أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ أَوْ عَرْفِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

[متفق عليه عن أنس رضي الله عنه]

أنا حينما أقول نظافة لا أقصد أن يكون الثوب غالياً أبداً، الثوب الغالي من الأغنياء، أما الثوب النظيف فمن المؤمنين، قد يكون القماش عادياً جداً وأقل من عادي، قد تكون الثياب متواضعة جداً لكنها نظيفة، أي يمكن أن نضيف إلى النظافة الذوق، هناك تناسب ألوان، قد تكون الثياب رخيصة جداً لكن ألوانها متناسبة، فالمؤمن له ذوق، الإيمان مرتبة غالية جداً، مرتبة علمية، مرتبة أخلاقية، ومرتبة جمالية، أذواق المؤمن عالية.

أيها الأخوة،

((عن أبي قرصافة قال: ذهبت أنا وأمي وخالتي فأسلمن، وبايعن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصافحنه، فلما بايعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجعن من عنده منصرفين قالت لي أمي وخالتي: يا بني ما رأيت مثل هذا الرجل، ولا أحسن وجهاً منه، ولا أنقى ثوباً، ولا ألين كلاماً، ورأين كأن النور يخرج من فمه))

[من كنز العمال عن قرصافة]

أنا أقول لكم كلاماً دقيقاً، ما الذي يمنع أن نعتني كثيراً بمظهرنا؟ أي ثياب نظيفة، كان النبي عليه الصلاة والسلام له ثياب يلبسها في الجمع والأعياد، ومكانة المؤمن تقتضي ذلك، كان له ثياب يلبسها في الجمع والأعياد، أنت مؤمن، أنت سفير هذا الدين، أي إذا أضفت إلى الثياب النظيفة تناسق الألوان فهذا شيء جميل جداً، نكون جمعنا بين الذوق والنظافة، فهو أنظف خلق الله بدناً، وأنقاهم ثوباً، وكان صلى الله عليه وسلّم يستاك حين خروجه من منزله، وحين دخوله.

دراسة سيرة النبي الكريم من أجل أن يكون مظهرنا راقياً:

أيها الأخوة، نحن في شمائله صلى الله عليه وسلم، والشمائل دراسة سيرة النبي على شكل موضوعات لا على شكل تسلسل تاريخي، هناك سيرة وهناك شمائل، السيرة دراسة حياته بالتسلسل التاريخي هذا شأن السيرة، أما شأن الشمائل فدراسة حياة النبي عليه الصلاة والسلام على شكل موضوعات، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلّم:

((إِنّ اللّهَ طَيّبٌ يُحِبّ الطّيّبَ، نَظِيفٌ يُحِبّ النّظَافَةَ، كَرِيمٌ يُحِبّ الْكَرَمَ، جَوَادٌ يُحِبّ الْجُودَ، فَنَظّفُوا أَفْنِيَتَكُمْ ولا تَشَبّهُوا بِالْيَهُودِ))

[الترمذي عن سعدٍ رضي الله عنه]

والله أذكر مرة دخلت إلى بيت في ريف دمشق، البيت متواضع جداً من اللبن، بناء قديم، والله ما وقعت عيني على بيت أنظف منه، ولا أجمل، شيء بسيط جداً لكنه نظيف، مثلاً في ساحة الدار نباتات زينة، علب سمنة لكنها طليت باللون الأخضر وجميعها بقياس واحد، فيها أنواع النباتات، لفت نظري أنه بيت فقير جداً، متواضع جداً، لكنه جميل جداً جداً، ما الذي يمنع أن يكون بيتك جميلاً؟ ومحلك التجاري جميلاً؟ وثيابك نظيفة؟ هذه قضية لها قوة جذب، كيف أن النبي عليه الصلاة والسلام يجذب، وأنت كمؤمن هو قدوتك، هذه سيرته من أجل ماذا؟ من أجل أن يكون مظهرنا راقياً:

((أصلحوا رحالكم، وحسنوا لباسكم، حتى تكونوا كأنكم شامة بين الناس))

[أحمد عن سهل بن الحنظلية]

مرة ثانية: أنا حينما أتحدث عن نظافته لا أقصد الثوب الغالي إطلاقاً، هذا كلام لكل مؤمن مهما يكن فقيراً، لكن بإمكانك أن تضيف إلى رخص الثوب اللون المناسب، لا يوجد مانع إن نميت أذواقك، أحياناً ترى لونين متنافرين جداً، أحياناً تجد ثياباً إسلامية وهناك شيء ثان منها غير إسلامي، ثياب مدنية ومعها قبعة، لا يوجد تناسق، إما أن يكون مظهرك مدنياً أو مظهرك إسلامياً، ينبغي ألا تجمع بينهما، الجمع بينهما يثير تساؤلاً.

الله عز وجل وتر يحب الوتر:

حديث آخر أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال:

((استاكوا، وتنظفوا، وأوتروا ؛ فإن الله عز وجل وتر يحب الوتر))

[الجامع الصغيرعن سليمان بن صرد]

معنى أوتروا، أي اغسل يديك ثلاث مرّات، اغسل الإناء ثلاث مرات، أول مرة اغسله دلكاً، والمرة الثانية صبّ الماء عليه ليذهب ما عليه، والمرة الثالثة للتأكد من نظافة الإناء، فقال:

((استاكوا، وتنظفوا، وأوتروا ؛ فإن الله عز وجل وتر يحب الوتر))

[الجامع الصغيرعن سليمان بن صرد]

معنى أوتروا أي ثلاث مرات، الوتر واحد وثلاثة وخمسة، فالنبي كان بالوضوء يغسل ثلاث مرات فأخذ عنه ذلك:

((استاكوا، وتنظفوا، وأوتروا ؛ فإن الله عز وجل وتر يحب الوتر))

[الجامع الصغيرعن سليمان بن صرد]

لو وسعنا مفهوم النظافة إلى نظافة السلوك، احتيال لا يوجد، مكر لا يوجد، دجل لا يوجد، مؤامرة لا يوجد، المؤمن واضح.

المؤمن إنسان واضح و هدفه نظيف:

الآن دخلنا بالمعنى الواسع، هذا المعنى أشار إليه النبي عليه الصلاة والسلام فقال:

((قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ))

[ابن ماجه عن العرباض]

المسلم واضح، صدقاً أيها الأخوة، المسلم واضح جداً ومع الأسف الشديد الكافر واضح، من هو الخَطِر؟ المنافق له مظهر ديني وهو مع الكفار:

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ*اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

[سورة البقرة الآيات: ١٤-١٥]

فالمؤمن واضح وأنا بشكل أو بآخر أحترم الإنسان الواضح، ولو كان على غير الإيمان، لكن لا تقلدوه، لا تتأسوا به، والله عز وجل وصف المؤمنين بسطرين، بأول البقرة، والكفار بسطرين، والمنافقون جاء وصفهم في ثلاث عشرة آية، حتى إن هناك حديثاً دقيقاً يقول هذا الحديث الشريف:

((لن يدخل الجنة إلا كل نظيف))

[من الجامع الصغير عن أبي هريرة]

إنسان تزوج امرأة العقد على التأبيد، أما هو مقيم في بلد يتزوجها، وأوهمها أن العقد على التأبيد فإذا انتهت دراستي من هذا البلد أطلقها، هذا زواج غير نظيف، هذا الزواج فيه غش، سنتوسع قليلاً في النظافة، هناك هدف نظيف أنت حينما تعقد قرانك على امرأة على التأبيد، هذا زواج نظيف، قد تضطر إلى تطليقها بعد ساعة أو بعد سنة، لا يجد مانع هذا موضوع ثانٍ، أما أنت حينما عقدت العقد عليها، الهدف زواج إسلامي على التأبيد، قد يظهر منها شيء يقتضي ألا تبقى معك، هذا موضوع ثان، أما إنسان مخادع يوهمها أن الزواج على التأبيد وفي نيته أن يكون

مؤقتاً، هذا الزواج غير نظيف، أحياناً تشارك إنساناً والشراكة على التأبيد لكن في نيتك حينما تتقن خبرته أن تصرفه بطريقة أو بأخرى، تضايقه حتى تفصم هذه الشركة، هذه شركة غير نظيفة بنيت على الخداع.

صدقوا ولا أبالغ الآن تستخدم هذه الكلمة بتوسع كبير، يقول لك: إنسان نظيف، دعك من ثيابه، ومن جسمه، ومن بيته، ومن دكانه، إنسان نظيف أهدافه واضحة، لا يغش، لا يحتال، لا يوجد عنده شيء معلن وشيء مبطن، نظيف، هدفه نظيف، دعوته إلى الله تعليم، أو معالجة، أما هناك وسائل لا تعد ولا تحصى، لذلك الحديث:

((لن يدخل الجنة إلا كل نظيف))

[من الجامع الصغير عن أبي هريرة]

نحن مع هذا الحديث نضطر إلى أن نوسع معنى النظافة، أهدافه نظيفة، علاقاته نظيفة، لا يوجد عنده علاقات معلنة وعلاقة مبطنة، لا يوجد عنده زواج بنية التوقيت، زواجه على التأبيد، لا يوجد عنده شراكة بنية أخذ الخبرة أولاً وفصل الشريك ثانياً، هذه شراكة غير نظيفة.

غسل يوم الجمعة واجبٌ على كل مسلم:

والآن لو عدنا مرة ثانية إلى النظافة بالمعنى المادي، يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((عَلَى كُلِّ رَجُلٍ مُسْلِمٍ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ غُسْلُ يَوْمٍ وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ))

[النسائي والإمام أحمد عن جابرٍ رضي الله عنه]

أي أن تغتسل يوم الجمعة هذا من الدين، هذا يقتضيه إيمانك، والأفضل قبل صلاة الجمعة، تأتي إلى المسجد نظيفاً، والله مرة أخ كريم تألمت منه ألماً لا حدود له، قال لي: صليت وراء إنسان في المسجد يغلب على ظني أن جواربه منذ سنة لم يغسلها، ويصدر منها رائحة لا تحتمل، قال لي: والله تركت المسجد كله، أنا تألمت ألماً شديداً، فالإنسان قبل أن يأتي إلى المسجد يجب أن يغتسل، أن يغسل جواربه، أن يتعطر، هذا المسجد بيت الله.

إنّ بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوّارها هم عمّارها، فطُوبى لِعَبْد تطهّر في بيته ثمّ زارني، وحُقّ على المزور أن يُكْرِم الزائر، إذاً غسل يوم الجمعة هذا واجبٌ على كل مسلم، ويوم العيد. أنا سمعت مرة عن أسرة أعجبني وضعها كثيراً، تنجز كل أعمال الأسبوع يوم الخميس والجمعة، البيت نظيف، الثياب نظيفة، كل أفراد الأسرة قد اغتسلوا قبل يوم الجمعة، هذا يوم الجمعة يوم عيد، يوم لقاء ودي، يوم زيارة، يوم حضور درس علم، وأتمنى والله عليكم هناك

أشخاص الأعمال الصعبة المتعبة يوم الجمعة، افعل هذا بيوم آخر، والآن بفضل الله عندنا يومان عطلة في الأسبوع، السبت والجمعة، أنت اجعل هذا اليوم يوم عيد، الأمور كلها واضحة، لقاء ودي، صلاة جمعة، نظافة، وما شاكل ذلك.

على الإنسان تنفيذ وصايا النبي صلى الله عليه وسلّم في النظافة:

أيها الأخوة الكرام، منظّمة الصحّة العالميّة في بعض تقاريرها تقرير يؤكد أن هناك ثلاثمئة مليون إنسان في الأرض مصابون بأمراض أسبابها القذارة، والشيء اللطيف والجيد أن هذه الأمراض أقلها نسباً في العالم الإسلامي، بسبب غسل يوم الجمعة، والوضوء، والطهارة، والخِتان، وبسبب تنفيذ وصايا النبي صلى الله عليه وسلّم، لذلك:

((عَشْرٌ مِنَ الْفِطْرَةِ قَصُّ الشّارِبِ، وَإِعْفَاءُ اللّحْيَةِ، وَالسّوَاكُ، وَاسْتِنْشَاقُ الْمَاءِ، وَقَصُّ الأَظْفَارِ، وَغَسْلُ الْبَرَاجِمِ، وَنَتْفُ الإِبِطِ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ))

[مسلم عن عائشة رضي الله عنها]

والبراجم مكان اتصال الظفر باللحم، أحياناً يتوضع في هذا المكان الضيق والحرج بعض القذر بعد دخول الخلاء، يقول بعض العلماء: لو أن إنساناً مصاباً بالتهاب كبد إنتاني، ودخل إلى الخلاء ولم ينظف براجمه جيداً، قد يصاب ثلاثمئة إنسان يرتاد هذا المطعم بمرض التهاب الكبد الوبائي القاتل، وهذا كلام خطير.

لذلك قص الشارب، السواك، استنشاق الماء، قص الأظافر، غسل البراجم، نتف الإبط، حلق العانة، وفي حديث آخر:

((قصوا أظافركم، وادفنوا قلاماتكم ـ القلامة الظفر المقصوص ـ ونقوا براجمكم، ونظفوا لثاتكم من الطعام، واستاكوا، ولا تدخلوا علي قحراً ـ بأسنان صفراء ـ بخرا ـ رائحة فم كريهةـ))

[الترمذي عن عبد الله بن بسر]

الوضوء وضوءان: وضوء الطعام ووضوء الصلاة:

وروى الترمذي عن سلمان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال:

((بَرَكَةُ الطّعَامِ الْوُضُوءُ قَبْلَهُ وَالْوُضُوءُ بَعْدَهُ))

[الترمذي عن عن سلمان رضي الله عنه]

وضوء الطعام أن تغسل يديك وفمك، كنت بالطريق مسكت شيئاً غير نظيف، صافحت إنساناً يده غير نظيفة، خلعت حذاءك، هذه اليد مسكت أشياء قد تكون غير نظيفة:

((بَرَكَةُ الطَّعَامِ الْوُضُوءُ قَبْلَهُ وَالْوُضُوءُ بَعْدَهُ))

[الترمذي عن سلمان رضي الله عنه]

أي غسل اليدين والفم قبل الطعام، وغسل اليدين والفم بعد الطعام، لكن الوضوء الذي هنا ليس وضوء الصلاة، هنا الوضوء وضوء الطعام، أما:

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ مِنْ الْخَلَاءِ فَقُرِّبَ إِلَيْهِ طَعَامٌ، فَقَالُوا: أَلَا نَأْتِيكَ بِوَضُوءٍ، قَالَ: إِنَّمَا أُمِرْتُ بِالْوُضُوءِ إِذَا قُمْتُ إِلَى الصَّلَاةِ))

[الترمذي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما]

صار هناك وضوءين؛ وضوء الطعام ووضوء الصلاة، وفي حديث آخر:

((من كرامة المؤمن على الله تعالى نقاء ثوبه، ورضاه باليسير))

[الطبراني في الكبير عن ابن عمر]

من رأى إنساناً مبتلى فلا يحقّره:

وروى أبو نعيمٍ عن جابرٍ أن النبي صلى الله عليه وسلّم رأى رجلاً وسخة ثيابه، فقال:

((أما وجد هذا شيئاً ينقي به ثيابه ؟))

[من كشف الخفاء عن جابر]

هناك قصة ترويها الكتب، أحد العارفين بالله ــ مالك بن دينار ــ كان يمشي في الطريق، فرأى إنساناً مخموراً قد أغمي عليه، والزبد حول شفتيه، ويقول: الله الله، فكَبُرَ عليه أن يخرج هذا الاسم العظيم من هذا الفم النَجِس، فما كان منه إلا أن غسل فمه، وهو في سكره، فلما أفاق قيل له: أتدري من غسل فمك؟ قال: لا، قالوا: الإمام مالك بن دينار، فمن شدة تأثُّره وخجله تاب من توه توبةً نصوحةً، والإمام مالك فيما تروي الكتب أنه سمع وهو في المنام صوتاً يناديه ويقول:" يا مالك طهّرت فمه من أجلنا، فطهّرنا قلبه من أجلك "، وفي صبيحة اليوم التالي ذهب الإمام مالك إلى المسجد فرأى رجلاً يصلي ويبكي، ولفت نظره شدّةُ بكائه فقال:" يا هذا من أنت ؟ " فقال:" إن الذي هداني أخبرك بحالي". هو نفسه الذي طهر فمه وهو مخمور، والله عز وجل طهر قلبه، و في اليوم التالي كان في المسجد، مغزى هذه القصة إذا رأيت إنساناً مبتلى بمعصية، لا تحتقره لعله يتوب، ويسبقك.

على الإنسان أن ينظف داره و جسده و لا يتشبه باليهود:

وعَنِ الْأَشْعَثِ عَنْ عَمَّتِهِ قَالَ:

((قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ وَأَنَا شَابٌّ مُتَأَزِّرٌ بِبُرْدَةٍ لِي مَلْحَاءَ أَجُرُّهَا فَأَدْرَكَنِي رَجُلٌ فَغَمَزَنِي بِمِخْصَرَةٍ مَعَهُ ثُمَّ قَالَ أَمَا لَوْ رَفَعْتَ ثَوْبَكَ كَانَ أَبْقَى وَأَنْقَى فَالْتَفَتُّ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا هِيَ بُرْدَةٌ مَلْحَاءُ قَالَ وَإِنْ كَانَتْ بُرْدَةً مَلْحَاءَ أَمَا لَكَ فِيَّ أُسْوَتِي فَنَظَرْتُ إِلَى إِزَارِهِ فَإِذَا فَوْقَ الْكَعْبَيْنِ وَتَحْتَ الْعَضَلَةِ))

[الإمام أحمد عَنِ الْأَشْعَثِ]

أي أنقى وأطهر، أيها الأخوة:

((فَنَظِّفُوا أَفْنِيَتَكُمْ وَلا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ))

[الترمذي عن ابن أبي حسّان]

أفنيتكم أي منازلكم، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((عُرِضَتْ عَلَيَّ أُجُورُ أُمَّتِي حَتَّى الْقَذَاةُ يُخْرِجُهَا الرَّجُلُ مِنَ الْمَسْجِدِ وَعُرِضَتْ عَلَيَّ ذُنُوبُ أُمَّتِي فَلَمْ أَرَ ذَنْبًا أَعْظَمَ مِنْ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ آيَةٍ أُوتِيهَا رَجُلٌ ثُمَّ نَسِيَهَا))

[الترمذي عن أنسٍ رضي الله عنه]

أيها الأخوة الكرام، تميم الداري من أصحاب النبي صلّى الله عليه وسلّم، وكان في الشام فاشترى قناديل لمسجد النبي عليه الصلاة والسلام، فلما وصل إلى المدينة أمر غِلْمَانه فركّبوا هذه القناديل، وأسرجها يوم الجمعة، فدخل النبي عليه الصلاة والسلام فرأى المسجد قد نوِّر فقال: " من فعل هذا ؟" فقالوا: تميم، فما كان عليه الصلاة والسلام إلا أن دعا وقال: " اللهمَّ نوِّر قلبه كما نوَّر بيتك، وقال له:" لو أن عندي بنتاً لزوجتكها. فقال أحد الصحابة: عندي فتاة يا رسول الله أنا أزوِّجه إيّاها"، فزوّجه إيّاها.

وقد:

((أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِبِنَاءِ الْمَسَاجِدِ فِي الدُّورِ وَأَنْ تُنَظَّفَ وَتُطَيَّبَ))

[الترمذي عن عائشة رضي الله عنها]

الموضوع العلمي:

جهاز التكييف والتبريد عند الإنسان من آيات الله الدالة على عظمته:

ننتقل إلى الموضوع العلمي، أيها الأخوة من الآيات الدالة على عظمة الله عز وجل أن في الإنسان جهاز تكييف وتبريد، يعد من أدق وأعقد الأجهزة، فالإنسان يتميز أنه كائن، له حرارة

ثابتة، هي سبع وثلاثون درجة، فكيف يصنع لو ارتفعت الحرارة أو انخفضت؟ حرارته ثابتة، سبع وثلاثون، الآن الحرارة خمس درجات، أو تحت الصفر أي ما يقدر بخمسين أو ثلاث وأربعين أو ست وخمسين درجة، ما الذي يحصل؟ قال: إذا ارتفعت حرارته إلى الدرجة الخامسة والأربعين مع الرطوبة المطلقة، أو ارتفعت إلى الدرجة ستين مع الجفاف المطلق، فما دون هاتين الحالتين الإنسان مزود بجهاز بالغ التعقيد يثبت حرارته في الدرجة السابعة والثلاثين.

أنت لك درجة حرارة، الآن الحرارة تقدر بست وخمسين، درجتك سبع وثلاثون، الآن الحرارة خمس، درجتك سبع وثلاثون، معنى هذا أن عندك جهازاً بالغ الدقة، جهاز تكييف، وجهاز تبريد، لكن لو جئت بقطعة معدن، ووضعتها في الشمس ترتفع حرارتها، أو وضعتها في مكان بارد تنخفض حرارتها، الأشياء كلها لها حرارة متأثرة بمحيطها إلا الإنسان حرارته ثابتة، إن كانت الحرارة تقدر بست وخمسين تقيس حرارة الإنسان فإذا هي سبع وثلاثون، إن كانت الحرارة خمس درجات فوق الصفر تبقى حرارة الإنسان سبع وثلاثين، ما هذا الجهاز الذي يبرد أو يسخن؟

قال: في الإنسان من ثلاثة إلى أربعة ملايين غدة عرقية، موزعة في الجلد توزيعاً حكيماً، في باطن اليد مثلاً، في السنتمتر المربع أربعمئة و ثمانون غدة عرقية، هذه الغدد العرقية لو وصل بعضها ببعض لصار طولها خمسة كيلو مترات في جسم كل منا، هذه لغدد العرقية في أيام الحر الشديد تفرز من مئتي سنتمتر مكعب يومياً إلى ألف وخمسمئة سنتمتر مكعب يومياً من العرق.

الغدد العرقية في الحر الشديد تفرز هذا العرق، العرق يتبخر بفعل الحرارة، عندما يتبخر يبعد الحرارة عن الجسم، وتبقى حرارة الجسم سبع وثلاثين، فإذا أفرز العرق وانتشر على سطح الجلد الذي تزيد مساحته في الإنسان عن متر وثماني بالعشرة من الأمتار المربعة، هذا الماء التي تفرزه خلايا العرق يتبخر، ومع التبخر يحصل ما يسمى بالتبادل الحراري، فحينما يتبخر العرق يمتص حرارة من الجسم تعيده إلى الدرجة الثابتة، إنه من أعقد أجهزة التكييف في الكون.

هذا العرق يتبخر ما الذي يبخره؟ حرارة الجو، يأخذ من الجسم حرارته وتبقى حرارة الجسم سبع وثلاثين.

وحينما يبرد الإنسان، تضيق الأوردة لتخفف جولان الدم في السطح الخارجي، ليحافظ الدم على حرارته، إذا شعر الإنسان بالحر اتسعت الشرايين والأوردة حتى ينتشر الدم في أوسع مساحة في الجلد، أما إذا برد الإنسان فيصفر لونه، لأن قطر الأوردة والشرايين يضيق ليبقى الدم في الداخل محافظاً على حرارته، وحينما يرتجف الإنسان هذا الارتجاف يولد طاقة حرارية، يعوض بها ما فقده في المحيط الخارجي، وحينما يقف شعر الإنسان يحجز هواءً ساخناً بحجم أكبر.

هذه آلية مواجهة البرد والحر بالإنسان، هذه آلية معقدة لو هبطت الحرارة عن الحد المعقول هناك آلية معقدة تتم لو ارتفعت الحرارة عن الحد المعقول.

فضل الله عز وجل على الإنسان:

أيها الأخوة الكرام:

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾

[سورة الطور الآية: ٣٥]

﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

[سورة الذاريات الآية: ٢١]

أي كل واحد منا معه جهاز تكييف وتبريد، ومعه جهاز تسخين من أعلى مستوى، وأساسه من ثلاثة إلى أربعة ملايين غدة تفرز بالحر من لتر إلى لتر ونصف عرقاً، العرق سائل يتبخر، مع التبخر يصير تبادل حراري، أي تبخر بحرارة الجسم، فأخذ من هذه الحرارة، فبقي الجسم ثابت الحرارة، هذا من فضل الله علينا، ومن فضل الله علينا أن نعرف هذه الحقائق، لذلك قال تعالى:

﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

[سورة الذاريات الآية: ٢١]

والحمد لله رب العالمين

السيرة – الشمائل المحمدية ٢٠١٠ – الدرس (٠٥-) : تجمله صلى الله عليه وسلم، أجراس الإنذار المبكر في الجسم البشري

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠١٠-٠٥-٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

تجمل النبي عليه الصلاة والسلام:

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس من دروس الشمائل النبوية، و لا يغيب عن أذهانكم أن الشمائل نوع من السيرة، ولكنها على أساس موضوعات لا على أساس تسلسل زمني، فخصائص النبي عليه الصلاة والسلام، شمائل النبي، أخلاق النبي، كمالات النبي نأخذها واحداً واحداً، بعد الحديث عن مقدمات عديدة لهذه السلسلة من الدروس وصلنا إلى تجمل النبي عليه الصلاة والسلام،أن الله جميل يحب الجمال، والمؤمن يتخلق بأخلاق النبي عليه الصلاة والسلام، فكان عليه الصلاة والسلم يتجمل ويأمر أصحابه بالتجمل، ويأمرهم بأن يكونوا بمظهر حسن:

((أصلحوا رحالكم، وحسنوا لباسكم، حتى تكونوا شامة بين الناس))

[أحمد عن قيس بن بشر]

لذلك فهموا هذا النص على أنه نظافة البدن، ونظافة الثوب، وترجيل الشعر، وقص الأظافر، وأناقة الثياب، أي تناسب الألوان، هذا هو التجمّل، وكل إنسان يتجمّل بقدر إيمانه، و أي إنسان أشعث، أغبر، مهمل لثيابه، ثيابه غير نظيفة، والله هذا لا يتناسب مع الإيمان، لأنك إن شئت أم لم تشأ أنت تمثل هذا الدين، أنت داعية وقد تكون الدعوة صامتة، قد يكون مظهرك الأنيق، وكلامك الدقيق، وحركتك اللطيفة، شيء يمهد للإصغاء إليك، في الحياة قوانين، الإنسان إذا اعتنى بثيابه، اعتنى بنظافتها، دقق في ألوانها، يستميل قلوب الناس بهذا المظهر الأنيق.

هذا من أولى شمائله صلى الله عليه وسلم أنه كان يتجمّل، ويأمر أصحابه بالتجمّل، روى البيهقي أنه كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم حُلّةٌ يلبسها للعيدين والجمعة.

أي الأكمل والأولى أن تكون لك ثياب ترتديها في المناسبات، في حفل، في دعوة، في لقاء، في مناسبة، في عيد، هذه الثياب ينبغي أن تكون خاصة للمناسبات، كانت له حُلّةٌ يلبسها للعيدين والجمعة.

المعاملة الطيبة تطغى على المظهر و الكلام:

بالمناسبة أنت حينما تلتقي بإنسان يأخذ عنك فكرة من ثيابك، فإذا تكلمت ينسى ثيابك، فإذا عاملته ينسى كلامك، المظهر، الكلام، المعاملة، وقد يكون لإنسان لسان أحلى من العسل، فإذا سافرت معه ظهرت أثرته، أكل قبلك، أكل ما يشتهي، ولم يعبأ بمن حوله، أخذ المحل الجميل، وقد لا يدفع شيئاً.

إن التقيت إنساناً أول فكرة تأخذها من هندامه، فإذا تكلم قد تنسى هندامه، فإذا عاملك قد تنسى كلامه.

مرة أحد وجهاء دمشق رأى شاباً أنيقاً أناقة تفوق حدّ الخيال، يتكلم كلاماً بذيئاً جداً، قال له: إما أن تلبس ككلامك أو تتكلم كثيابك:

جمال الوجه مع قبح النفوس   كقنديل على قبر المجوس

***

أحياناً أناقة زائدة لكن في المعاملة يوجد سوء، يوجد خبث، أي أنت بشكل أو بآخر تمثل هذا الدين، لذلك كل رجل من المسلمين ــ في بعض أقوال النبي عليه الصلاة والسلام ــ على ثغرة من ثغر الإسلام، فينبغي ألا يؤتى الإسلام من قبلك.

الطرف الآخر يحتاج إلى معاملة طيبة ليدخل في الإسلام:

بالمناسبة أخوتنا الكرام، عندما تسيء إلى مسلم يقول هذا المسلم: فلان أساء إليّ، لكن حينما تسيء لغير المسلم يقول: المسلمون أساؤوا إليّ، ينسى شخصك، وينسى اسمك، ويتهم كل المسلمين، فلذلك من أدق أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام:

((المسلمُ من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده))

[أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمر]

قد يتوهم متوهم أن هذا المسلم لا يضرب أحداً، ليس هذا هو المعنى، أي سلمت سمعة المسلمين من لسانه ويده، أي عامل الآخر، عامل الطرف الآخر معاملة أبعدت أن يتهموا الإسلام، لذلك من أدق آيات القرآن الكريم ونحن في أمس الحاجة إليها:

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

[سورة الممتحنة الآية: ٥]

وعدت إنساناً ليس مسلماً ولم تفِ بوعدك، احتلت عليه، أخذت ما ليس لك، بهذه المعاملة يتشبث بكفره، ويعتقد أنه وحده على حق، أنا أقول لكم: المؤمن الصادق يحدث لكل من يعامله صدمة أخلاقية، ما هذه الأخلاق؟ أنا أرى أن الطرف الآخر لا يحتاج إلى فلسفة، ولا إيديولوجيا ــ إن

صحّ التعبير ــ يحتاج إلى معاملة طيبة، كل رجل من المسلمين على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك، وقد ورد في الحديث القدسي:

((إن هذا الدين ارتضيته لنفسي ولا يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صحبتموه))

[شعب الإيمان عن جابر بن عبد الله]

مرة كنت أصلي في المصلى، وأنا مضطر أن أذهب لآخذ مركبتي من مصلح بطرف المدينة، وجدت أحد من يصلي خلفي سائق تكسي، فلما طلبت منه أن يوصلني إلى المكان الفلاني كأنه اضطرب، وارتبك، وكان يتمنى ألا يفعل، لكنه أحرج، فلما أوصلني كان العداد يشير إلى العشرين فأعطيته ثلاثين، قلت له: اترك الباقي معك، هو في الحقيقة كان يظن أنني لن أعطيه أجرته.

((إن هذا الدين ارتضيته لنفسي ولا يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صحبتموه))

[شعب الإيمان عن جابر بن عبد الله]

القدوة قبل الدعوة والإحسان قبل البيان:

قبل أن تنطق بالكلام الطيب، قبل أن تتكلم بالآيات والأحاديث، قبل أن تتفاصح، هل لك معاملة طيبة؟ هل فتحت قلوب الآخرين بإحسانك ليفتحوا عقلهم لبيانك؟ الكلام لا يقدم ولا يؤخر، أما الإحسان يقدم ويؤخر، لذلك القدوة قبل الدعوة والإحسان قبل البيان.

حدثني أخ قال لي: عندي جار يبالغ بالإساءة إليّ، قلت له: قص لسانه، قال: كيف؟ قلت: بالإحسان إليه، والله أسلوب ناجح جداً لك جار سيئ قدم له هدية، تجده انكمش، ضبط لسانه، قص لسانه بالإحسان إليه:

((يا داود ذكر عبادي بإحساني، فإن القلوب جبلت على حبِّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها))

[ورد في الأثر]

وأنا أقول لكم: افتح قلب من تخاطبه بإحسانك ليفتح لك عقله لبيانك، الإحسان قبل البيان، والقدوة قبل الدعوة، أنت أيها المؤمن شئت أم أبيت تمثل هذا الدين، كن سخياً، كن كريماً، كن صادقاً، سبحان الله لحكمة بالغة في كل مكان الله عز وجل يجعل إنساناً مستقيماً في هذا المكان ليكون هذا الإنسان المستقيم حجة على من حوله، هناك أشخاص سيئون جداً، لكن أنا كأنني تتبعت هذا فوجدته، من سنن الله عز وجل بكل مكان يوجد إنسان يقيم الحجة على من حوله.

تروي السيدة عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلّم كان هناك نفر من أصحابه ينتظرونه على الباب، فخرج يريدهم وفي الدار رَكْوَةٌ فيها مَاء فَجَعَلَ ينظرُ في الْمَاءِ وَيُسَوِّي شَعْرَه ولِحْيَتَهُ، فهناك استنباط لطيف، قبل أن تخرج إلى أخوانك، ما الذي يمنع أن تنظر إلى هيئتك؟ الشعر مرجل، الرائحة طيبة، الثياب أنيقة، نظيفة، كان النبي عليه الصلاة والسلام يحب التجمل، والحديث المشهور:

((إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ))

[أحمد عن عبد الله بن مسعود]

و في حديث آخر:

((إذا خرج أحدكم إلى أخوانه فليهيئ من نفسه))

[رواه أبو سعد السمعاني عن عائشة]

أحاديث نبوية عن تجمل النبي عليه الصلاة والسلام:

بالمناسبة الجمال في البساطة، والبساطة أربعة أخماس الجمال، أحياناً هناك بيت بسيط، لكن فيه أناقة، فيه نظافة، فيه تناسب ألوان، وهناك بيت أحياناً فيه تحف بمبالغ فلكية، لكن لا يوجد به ذوق، فالذوق ينمو، والذوق شيء أساسي بحياتنا، هناك حاجة جمالية عند كل إنسان، ويمكن أن تلبى هذه الحاجة بأقل التكاليف، والدرس عن تجمل النبي عليه الصلاة والسلام.

كان إذا قدِم عليه وفدٌ لبس أحسن ثيابه، وأمر أصحابه بذلك، فرأيته وفَدَ عليه وفد كِنْدَة وعليه حُلّةٌ يمانيّة، وعلى أبي بكرٍ وعمر مثل ذلك.

هذه أحاديث نبوية عن تجمله:

((إِنَّ الْهَدْيَ الصَّالِحَ وَالسَّمْتَ الصَّالِحَ وَالِاقْتِصَادَ جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنْ النُّبُوَّةِ))

[أبو داود عن عبد الله بن عباس]

كلام طيب وشكل فيه نظافة، فيه أناقة، فيه عناية بالثياب.

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ قَالَ:

((خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ بَنِي أَنْمَارٍ قَالَ جَابِرٌ فَبَيْنَا أَنَا نَازِلٌ تَحْتَ شَجَرَةٍ إِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْبَلَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلُمَّ إِلَى الظِّلِّ - أي شجرة ظلُّها وارف - قَالَ فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُمْتُ إِلَى غِرَارَةٍ لَنَا - غرارةٍ ظرفٍ

شديد العِدْلِ أي محفظة - فَالْتَمَسْتُ فِيهَا شَيْئًا فَوَجَدْتُ فِيهَا جِرْوَ قِثَّاءٍ فَكَسَرْتُهُ ثُمَّ قَرَّبْتُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مِنْ أَيْنَ لَكُمْ هَذَا قَالَ فَقُلْتُ خَرَجْنَا بِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ الْمَدِينَةِ قَالَ جَابِرٌ وَعِنْدَنَا صَاحِبٌ لَنَا نُجَهِّزُهُ يَذْهَبُ يَرْعَى ظَهْرَنَا قَالَ فَجَهَّزْتُهُ ثُمَّ أَدْبَرَ يَذْهَبُ فِي الظَّهْرِ وَعَلَيْهِ بُرْدَانِ لَهُ،هنا الشاهد، قَدْ خَلَقَا، أي اهترأ، قَالَ فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِ فَقَالَ أَمَا لَهُ ثَوْبَانِ غَيْرُ هَذَيْنِ فَقُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُ ثَوْبَانِ فِي الْعَيْبَةِ كَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا قَالَ فَادْعُهُ فَمُرْهُ فَلْيَلْبَسْهُمَا قَالَ فَدَعَوْتُهُ فَلَبِسَهُمَا ثُمَّ وَلَّى يَذْهَبُ قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا لَهُ ضَرَبَ اللَّهُ عُنُقَهُ أَلَيْسَ هَذَا خَيْرًا لَهُ قَالَ فَسَمِعَهُ الرَّجُلُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ فَقُتِلَ الرَّجُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))

[مالك عن عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ]

راع يرعى في الجبل، ولم يرض النبي عليه الصلاة والسلام أن تكون ثيابه رثة، هل هناك أبلغ من ذلك؟ فالشاهد من هذا النص الطويل أنك في أي مكان كنت ينبغي أن تكون ثيابك نظيفة، يذهب إلى الجبال ليرعى الغنم، ومع ذلك ما رضي النبي له هذين الثوبين.

النبي عليه الصلاة والسلام كان يتجمل ويأمر أصحابه بالتجمل:

أيها الأخوة، ما زلنا في موضوع التجمل، كان النبي عليه الصلاة والسلام يتجمل ويأمر أصحابه بالتجمل، فعَنْ مَالِك أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ:

((إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ أَنْظُرَ إِلَى الْقَارِئِ أَبْيَضَ الثِّيَابِ))

[موطأ مالك عَنْ مَالِك]

الثياب البيضاء تعلم النظافة البالغة، سيدنا عمر يقول: "**إذا أوسع الله عليكم فأوسعوا على أنفسكم**".

وفي الحديث الشريف:

((ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله))

[مسند الشهاب للقضاعي عن عائشة]

قتر حتى بالثياب.

حديث آخر:

((إن العبد آخذ عن الله تعالى أدباً حسناً، إذا وسع عليه وسع، وإذا أمسك عليه أمسك))

[السيوطي عن ابن عمر]

والحديث الذي روى الحاكم بإسناده:

((أحسنوا لباسكم، وأصلحوا رحالكم، حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس))

[الحاكم بإسناده عن سهل بن الحنظلية]

وفي حديث آخر وتوجيه آخر من النبي عليه الصلاة والسلام أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((إن الله تعالى إذا أنعم على عبد نعمة يحب أن يرى أثر النعمة عليه، ويكره البؤس والتباؤس))

[من الجامع الصغير عن أبي هريرة]

هذا البؤس والتباؤس ليس من صفات المؤمن.

((من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه))

[البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود]

الابتعاد عن البؤس و التباؤس:

أيها الأخوة، مرة ثانية:

((إن الله تعالى إذا أنعم على عبد نعمة يحب أن يرى أثر النعمة عليه، ويكره البؤس والتباؤس))

[من الجامع الصغير عن أبي هريرة]

طبعاً هذا الحديث في موضوع التجمل إذاً قد يوجه هذا الحديث إلى الثياب:

((إن الله تعالى إذا أنعم على عبد نعمة يحب أن يرى أثر النعمة عليه، ويكره البؤس والتباؤس))

[من الجامع الصغير عن أبي هريرة]

الهيئة القذرة، الهيئة المبتذلة، الخنوع، التذلل، المسكنة، اليأس، هذا كله بؤس وتباؤس:

((ويبغض السائل الملحف، ويحب الحيي العفيف المتعفف))

[الطبراني والبيهقي، عن عمران بن الحصين رضي الله عنهما]

على الإنسان أن يبتغي الحوائج بعزة الأنفس:

وهناك توجيه آخر للنبي عليه الصلاة والسلام:

((ابتغوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير))

[ورد في الأثر]

ما هو لك هو لك لن يأخذه أحد غيرك، سمعت مرة قصة لطيفة؛ إنسان دخل إلى بستان في أثناء جولته في البستان رأى تفاحة حجمها ولونها شيء رائع جداً، اشتهاها لكن ما كان له أن يقطفها من دون إذن صاحبها، يبدو أنه بعد الطعام وضع له صاحب البستان طبقاً وهذه التفاحة في الطبق نفسه، وما كان له أن يأخذها فإذا بصاحب البستان يمسكها ويقدمها له.

((ابتغوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير))

[ورد في الأثر]

أنا أقول لكم شيئاً دقيقاً، لو ذهبنا إلى مكان فيه تفاح، فرضاً دخلنا إلى بستان وجدنا شجرة تحمل التفاح، الآن الفرع الثالث الغصن الرابع التفاحة الخامسة لفلان عند الله، هذه له، هو مخير في طريقة وصولها إليه، قد يأخذها ضيافة، وقد يأخذها هدية، وقد يأخذها شراءً، وقد يتسولها، وقد يسرقها، وهي له، الفرع الثالث الغصن الرابع التفاحة الخامسة هي لك.

لذلك:

((إن روح القدس نفثت في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها، فاتقوا الله عباد الله وأجملوا في الطلب ــ وهناك زيادة ببعض الروايات ــ واستجملوا مهنكم))

[حديث صحيح بشواهده، ابن ماجه وأبو نعيم في الحلية والحاكم وابن حبان عن جابر]

هذا الذي اشتهاها على الشجرة، استحيا أن يقطفها، فلما وضعت في طبق استحيا أن يأخذها، فما كان من صاحب البيت إلا أنه أمسكها وقدمها له.

أيها الأخوة، التجمل في أدق الأحاديث:

((أحسنوا لباسكم، وأصلحوا رحالكم، حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس))

[الحاكم بإسناده عن سهل بن الحنظلية]

هذا من شمائل النبي عليه الصلاة والسلام.

الموضوع العلمي:

أجراس الإنذار المبكر في الجسم البشري:

والآن ننتقل أيها الأخوة في الموضوع العلمي، إلى موضوع لطيف ودقيق عنوانه: أجراس الإنذار المبكر في الجسم البشري.

هناك إنذار مبكر أي الله عز وجل وضع عصباً حسياً بالأسنان، في لب السن، فإذا وصل النخر إلى لب السن تتألم ألماً لا يحتمل، فتذهب إلى الطبيب، يسحب العصب، ويحشي هذا السن فتكسبه، فكأن هذا الألم إنذار مبكر، ولو تتبعنا أجهزة الإنذار المبكر في الجسم، لرأينا العجب العجاب. الجلد هو سطح يغطي شبكة هائلة من الأعصاب، وانتشار الأعصاب تحت سطح الجلد شيء

رائع، هذه الأعصاب تنتهي بجسيمات خاصة، يختص كل منها بنقل حسٍّ معين، هناك جسيمات تنقل الحر والبرد، فإذا غسلت يديك، تضع الماء على وجهك، اليدين والوجه شيء مقبول أن تضع الماء البارد عليهما في الشتاء، أما أن تضع الماء على ظهرك فهذا لا يحتمله، معنى هذا أن أعصاب الحس بين الظهر والوجه توزعت في حكمة بالغة، أنت مضطر أن تغسل يديك كل فترة، فأعصاب الحس في الحر والبرد قليلة جداً باليدين والوجه، أما في الظهر إذا صبّ الماء البارد على ظهرك قد لا تحتمل، معنى هذا أن هناك أعصاب حس عالية جداً.

أي توزع الأعصاب في الجسم وفق حكمة بالغة جداً، الآن هناك جسيمات تتحسس بالضغط، فالإنسان إذا نام على جنبه هيكله العظمي مع ما فوقه من عضلات يضغط على ما تحته من عضلات، الضغط على العضلات أي تضيق لمعة الأوعية الدموية، وإذا ضاقت لمعتها شعر الإنسان بالخدر، ضعفت التروية، هذه المجسات مراكز الإحساس بالضغط تبلغ الدماغ، والدماغ يأمر الإنسان وهو نائم وغارق في النوم فيقلب على طرفه الآخر:

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾

[سورة الكهف الآية: ١٨]

فأن تتقلب في الليل هناك أجهزة معقدة جداً، النوم على جهة واحدة صار هناك ضغط، هناك مجسات في مراكز إحساس بالضغط بلغت الدماغ، الدماغ أعطى أمراً اقلب على اليمين، ثاني أمر اقلب على اليسار لئلا تقع من على السرير، أما اقلب على اليمين دائماً أو اليسار دائماً فهناك مشكلة:

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾

[سورة الكهف الآية: ١٨]

جسم الإنسان وحده أكبر دليل على عظمة الله:

أيها الأخوة، والله الذي لا إله إلا هو جسمك وحده أكبر دليل على عظمة الله، قال: إن هناك من ثلاثة إلى خمسة ملايين نهاية عصبية تختص بالألم، أما الحر والبرد فهناك نهايات عصبية تزيد على مئتي ألف، وأما للإحساس بالضغط فهناك ما يزيد على خمسمئة ألف، أي نصف مليون، أنت عالم قائم بذاته.

أتحسب أنك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

***

هذه المعلومات الدقيقة من حر وبرد، من ألم، وضغط، ولمس، ينقلها ستاً وسبعين عصباً مركزياً إلى المخ، لكن هناك حالة غريبة المرض نفسه والآلام نفسها، مريض لا يحتمل هذا الألم، ومريض آخر المرض نفسه يحتمله، اكتشف العلماء أن هناك بوابات للألم، طريق الآلام عبر النخاع الشوكي هناك بوابات، فإذا أغلقت هذه البوابات وصل عشر الألم إلى النخاع الشوكي، وإذا بقيت مفتوحة وصل الألم بأكمله، حدثني طبيب قال لي: جاءنا مريض معه ورم خبيث منتشر بالأمعاء لكنه مؤمن، أقسم لي بالله كلما دخل عليه طبيب أو ممرض يقول له: اشهد أنني راض عن الله، يا ربي لك الحمد، يتهافت الممرضون على الدخول لعنده، غرفة منورة فيها روحانية، وكلما دخل إنسان لعنده يقول له: اشهد أنني راض عن الله، يا رب لك الحمد، فكأن هذا المريض استقطب المستشفى كلها، هذه الغرفة فيها روحانية، فيها رضا عن الله، فيها صبر، ليس فيها صياح ولا ضجيج، ولا كلام غير معقول، قال لي: بعد أيام توفاه الله، ولحكمة بالغة بالغة جاء بعده مريض في المرض نفسه لم يترك نبياً إلا وسبه، كلام بذيء، صياح، ضجيج، فكأن المستشفى رأت مرضاً واحداً، وآلاماً واحدة، ورد الفعل عند المؤمن شيء، وعند غير المؤمن شيء آخر.

لذلك اكتشف العلماء أن للألم بوابات، هذه البوابات ــ هكذا قرأت في مقالة علمية ــ من يتحكم بها؟ قال: تتحكم بهذه البوابات الحالة النفسية للمريض، إذا كان مؤمناً هذه البوابات تغلق، إذا أغلقت وصل من الألم عشره وإن لم تغلق فالآلام لا تحتمل.

لذلك أعصاب الإحساس بالألم، أعصاب الإحساس بالحر والبرد، أعصاب الإحساس بالضغط، هذه النهايات بالملايين، كلها من أجل أن تنقل للدماغ رسائل، والدماغ يأمر وينهى، هذا الإنسان أليس له خالق عظيم؟ هذا الخالق يعصى؟ هذا الخالق العظيم ألا يخطب وده؟ ألا ترجى جنته؟ ألا تخشى ناره؟

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

حلاوة منطق النبي عليه الصلاة والسلام:

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السادس من دروس الشمائل النبوية، والحديث اليوم عن حلاوة منطق النبي عليه الصلاة والسلام، ولا تنسوا أن المقولة تؤكد أن جمال الرجل فصاحته، أجمل ما في الرجل فصاحته، ولا تنسوا أن العرب كانوا يعجبون بالفصاحة، فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

((أنا أفصح العرب بَيْد أني من قريش))

[أخرجه الطبراني عن أبي سعيد الخدري]

إلا أنني؛ هذا أسلوب بلاغي رائع يسميه العلماء تأكيد المدح بما يشبه الذم،قد تقول: فلان كريم إلا أنه شجاع، أنت حينما أقول: إلا أنه، تتصور أنني سأذمه، إلا أنه شجاع.

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

* * *

((أنا أفصح العرب بَيْد أني من قريش))

[أخرجه الطبراني عن أبي سعيد الخدري]

وقريش أفصح قبيلة، كان النبي عليه الصلاة والسلام فصيحاً، بل كان أفصح العرب، بل تعلمنا في الجامعة أن أعلى نص بعد القرآن الكريم كلام النبي عليه الصلاة والسلام، والحديث اليوم عن حلاوة منطق النبي عليه الصلاة والسلام.

اللغة قوام الدعوة إلى الله عز وجل:

بالمناسبة إذا كان أعظم عمل كما قال الله عز وجل:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

[سورة فصلت الآية: ٣٣]

إذا كان أعظم عمل أن تُمكّن من الدعوة إلى الله عز وجل، فأساس الدعوة إلى الله الحديث، اللغة، الفصاحة، البيان، هل تصدق أن دعوة إلى الله عميقة يمكن أن تسري في كل البلاد بلغة عامية؟

بلغة ضعيفة؟ بجمل غير متينة؟ مستحيل، فلذلك قوام الدعوة إلى الله اللغة، المنطق، الفصاحة، لذلك كان النبي عليه الصلاة والسلام أفصح العرب قاطبة، بل إن النص النبوي يصنف بعد القرآن الكريم مباشرة، أي أفصح كلام، وأجمل بيان، بعد كلام الله عز وجل كلام النبي عليه الصلاة والسلام، فقد أوتي جوامع الكلم، والآن علماء كثر ممن يحملون أعلى شهادات في اللغة يدرسون بعض الأحاديث، ويتبحرون في خصائصها من حيث الصياغة، فينالون بهذه الأحاديث الدكتوراه، دكتور في الحديث الشريف، أي جمع بعض الأحاديث ودرسها دراسة عميقة، من حيث المضمون، ومن حيث الشكل.

فبعض الصحابة يقول: لما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وأمي وخالتي، ورجعنا من عنده منصرفين، قالت لي أمي وخالتي:

((يا بني ما رأينا مثل هذا الرجل أحسن منه وجهاً، ولا أنقى منه ثوباً، ولا ألين كلاماً، ورأينا كأن النور يخرج من فيه صلى الله عليه وسلم))

[الطبراني في الكبير عن أبي قرصافة]

النشاط اللغوي أصل الدعوة إلى الله:

لذلك أتمنى أن الأخ المؤمن يلم بشيء من الثقافة اللغوية، بشيء من قواعد اللغة العربية، يحاول أن يتكلم بالفصحى، من حين لآخر يحاول أن يقرأ ويكتب بالفصحى، هذا النشاط اللغوي أصل الدعوة إلى الله، الأصل أن تأتي العبارة فصيحة متينة، ولا تنسى أيضاً أن الله عز وجل حينما وصف المؤمنين بأنهم يتلون القرآن الكريم حقّ تلاوته، حق التلاوة أي أن تقرأ القرآن الكريم بلغة عربية فصيحة، ألا تخطئ لا في الحركات، ولا في التصريف، ما الفرق بين النحو والصرف؟ الصرف بنية الكلمة، أي تأمل يتأمل، أراد يريد، بنية الكلمة الصرف، أما حركة الحرف الأخير، آخر حرف، لو أنه فعل مضارع لو سبقه جازم يجزم، إن سبقه ناصب ينصب، إن تجرد عن الناصب والجازم يرفع، علم النحو يتحدث عن العوامل النحوية التي تؤثر في الكلمات المعربة، أما الكلمات المبنية تقول: من: اسم موصول مبني على السكون في محل كذا، فالكلمات كما تعلمون معربة، أي حرفها الأخير قابل للتحريك، بين فتح، وضم، وجر، أو تسكين، والكلمات المبنية حرفها ثابت، نقول: الكلمات معربة ومبنية، وكلما شككت في بنية كلمة إن راجعتها في المعجم تضيف ضبط كلمة إلى ذخيرتك اللغوية.

إذاً:

((يا بني ما رأينا مثل هذا الرجل أحسن منه وجهاً ولا أنقى منه ثوباً، ولا ألين كلاماً، ورأينا كأن النور يخرج من فيه صلى الله عليه وسلم))

[الطبراني في الكبير عن أبي قرصافة]

الكلمة الطيبة صدقة:

وكما تعلمون:

((لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ))

[أحمد عن أنس بن مالك]

((إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً))

[الترمذي عن أبي هريرة]

((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ...))

[رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وأحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

والكلمة الطيبة صدقة، قال تعالى:

﴿ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

[سورة إبراهيم الآيات: ٢٤-٢٥]

والحديث الثاني:

((لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ))

[أحمد عن أنس بن مالك]

ما ورد في السنة المطهرة عن جمال منطق النبي عليه الصلاة والسلام:

ومما ورد في السنة المطهرة عن جمال منطق النبي عليه الصلاة والسلام، أن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ سمع من أبيه أُسَامَةَ قَالَ:

((كَسَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُبْطِيَّةً كَثِيفَةً كَانَتْ مِمَّا أَهْدَاهَا دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ فَكَسَوْتُهَا امْرَأَتِي فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا لَكَ لَمْ تَلْبَسْ الْقُبْطِيَّةَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَسَوْتُهَا امْرَأَتِي فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْهَا فَلْتَجْعَلْ تَحْتَهَا غِلَالَةً إِنِّي أَخَافُ أَنْ تَصِفَ حَجْمَ عِظَامِهَا))

[أحمد عَنِ ابْنِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ]

أين الشاهد بالنص؟ إِنِّي أَخَافُ أَنْ تَصِفَ حَجْمَ عِظَامِهَا، أي كلمة عظم لا تثير الإنسان، أما أي كلمة أخرى مكان كلمة عظامها قد تكون كلمة مثيرة، أي النبي عليه الصلاة والسلام ينتقي الكلمة ــ إن صحّ التعبير ــ المحشومة التي لا تثير، أي في قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا ﴾

[سورة الأعراف الآية: ١٨٩]

طفل صغير يسمع كلمة تغشاها، كلمة سهلة واضحة، لا تحرج، لا يحمر منها الوجه، أنواع الانحرافات الجنسية:

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾

[سورة المعارج الآيات: ٢٩-٣١]

دخل في هذه الكلمة كل انحراف جنسي من دون استثناء.

الأدب القرآني:

أيها الأخوة:

﴿ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾

[سورة النساء الآية: ٤٣]

لامستم: طفل صغير يفهمها لامستم:

﴿ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾

[سورة النساء الآية: ٤٣]

﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا ﴾

[سورة الأعراف الآية: ١٨٩]

﴿ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فأولئك ﴾

[سورة المعارج الآية: ٣١]

هذا أدب قرآني.

المؤمن يتأدب بالأدب القرآني:

والله أيها الأخوة، تستطيع أن تعبر عن أدق أدق الانحرافات بكلمات لا تثير الشهوة أبداً، هذا الكلام الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام:

((مُرْهَا فَلْتَجْعَلْ تَحْتَهَا غِلَالَةً إِنِّي أَخَافُ أَنْ تَصِفَ حَجْمَ عِظَامِهَا))

[أحمد عَن ابْنِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ]

كلمة عظم لا تثير، أما أي كلمة مكانها تثير، أنا أعتب أحياناً على بعض الخطباء الذي إذا أراد أن يصف الفساد الاجتماعي ذكر مفاتن المرأة بالتفصيل، وكيف أنها بادية للناس، لا يصير، تريد

أن تبين الفساد أوقعت المستمعين بالفساد، فلذلك يقول لك إنسان: والله عاشرته ثلاثين عاماً لم أسمع منه كلمة محرجة، ولا كلمة غير منضبطة، علامة المؤمن انضباط لسانه:

﴿ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فأولئك ﴾

[سورة المعارج الآية: ٣١]

﴿ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾

[سورة النساء الآية: ٤٣]

﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا ﴾

[سورة الأعراف الآية: ١٨٩]

هذا أدب قرآني، والمؤمن يتأدب بالأدب القرآني.

ليس المؤمن بالطعان و لا اللعان:

شيء آخر: أحياناً والله لا أصدق هذا على مؤمن متفوق، هناك مزاح فاحش، مزاح فيه ذكر العورات، أنا لا أصدق أن يجرؤ مؤمن أن ينطق بهذا المزاح، ولا أن يطرب له، لأنه كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلا اللَّعَّانِ وَلا الْفَاحِشِ وَلا الْبَذِيءِ))

[الترمذي عن عبد الله]

هذا كلام السوقة، كلام دهماء الناس، كلام الجهلاء، كلام غير المنضبطين:

((لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلا اللَّعَّانِ وَلا الْفَاحِشِ وَلا الْبَذِيءِ))

[الترمذي عن عبد الله]

وأنا أتمنى إذا كان أحد الأخوة الكرام في مجلس، وبدأت الطرف الجنسية تلقى ألا يبقى في المجلس، بقاؤه في المجلس يحمله إثماً، لأن المؤمن:

((لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلا اللَّعَّانِ وَلا الْفَاحِشِ وَلا الْبَذِيءِ))

[الترمذي عن عبد الله]

هذه فحشاء الطرف الجنسية، اسم العورات، المغامرات الجنسية، هذه كلها بعيدة عن ثقافة المؤمن، وعن أخلاق المؤمن، وعن منطق المؤمن، وصدق ولا أبالغ قد تعرف المؤمن من انضباط لسانه، هناك جلسات وما أكثرها، أكثرها طرف لا يليق أن تسمعها وحدك فكيف إن كانت بين مجموع؟ وكيف إن كان في هذا المجلس أطفال صغار؟

النبي الكريم أفصح خلق الله لساناً وأوضحهم بياناً:

وكان عليه الصلاة والسلام أفصح خلق الله لساناً، وأوضحهم بياناً، أوتي جوامع الكلمة، وبدائع الحكم، وقوارع الزَجر، وقواطع الأمر، والقضايا المحكمة، والوصايا المُبرمة، والمواعظ البليغة، والحجج الدامغة، والبراهين القاطعة، والأدلة الساطعة.

هذا كان منطق النبي عليه الصلاة والسلام، وجاء عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أنه يَقُولُ:

((خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا كَالْمُوَدِّعِ فَقَالَ أَنَا مُحَمَّدٌ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ قَالَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَلَا نَبِيَّ بَعْدِي أُوتِيتُ فَوَاتِحَ الْكَلِمِ وَخَوَاتِمَهُ وَجَوَامِعَهُ وَعَلِمْتُ كَمْ خَزَنَةُ النَّارِ وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ وَتُجُوِّزَ بِي وَعُوفِيتُ وَعُوفِيَتْ أُمَّتِي فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا مَا دُمْتُ فِيكُمْ فَإِذَا ذُهِبَ بِي فَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ أَحِلُّوا حَلَالَهُ وَحَرِّمُوا حَرَامَهُ))

[أحمد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو]

ومن وصايا النبي عليه الصلاة والسلام الكثيرة ما إن تمسكتم بهما فلن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنة رسوله.

ضبط اللسان من صفات المؤمن:

أيها الأخوة، ضبط اللسان من صفات المؤمن:

احذر لسانَك أيُّـــــها الإنسانُ لا يلدغنّك إنـــه ثُـــــــعبانُ

كم في المقابرِ من قتيلِ لسانِه كانت تهابَ لقاءَه الشجعانُ

***

إنسان أحياناً ينتهي بكلمة، البطولة أن تضبط اللسان، هناك حديثٍ آخر:

((عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ فَقَرَأَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَغَضِبَ فَقَالَ أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا ــ أي الشريعة ــ بَيْضَاءَ نَقِيَّةً لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي))

[أحمد عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

أحياناً إنسان يصل إلى الحق، إلى كتاب الله، إلى سنة رسوله، ينبغي ألا يلتفت إلى شيء آخر، هذا هو الأصل، هذا هو الحق الصراح.

تحدث النبي عن خصائصه و نبوته من قبيل التعريف لا المباهاة:

أيها الأخوة، وفي حديث آخر يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

النبي عليه الصلاة والسلام إن تحدث عن نفسه صدق ولا أبالغ مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن يتحدث مفتخراً:

((أنا سيد ولد آدم ولا فخر))

[مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

لكن النبي عليه الصلاة والسلام يريد أن يبين لنا من هو دائماً وأبداً، من مهمات الأنبياء أن يذكروا خصائصهم، بل سمح لهم أن يتحدوا بمعجزاتهم الطرف الآخر، فهذا الكلام إذا تحدث النبي عليه الصلاة والسلام عن خصائصه، عن نبوته، عما آتاه الله عز وجل من فصاحة، من نسب، فهذا من قبيل التعريف، والدليل:

((أنا سيد ولد آدم ولا فخر سَلُوا الله لي الوسيلةَ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكونَ أنا))

[مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

من فصاحة النبي الكريم أنه كان يتكلم أحياناً بلهجات العرب:

من فصاحته صلى الله عليه وسلم أنه كان يتكلم أحياناً بلهجات العرب، فقال يوماً:

((لَيْسَ مِنْ امْبِرِّ امْصِيَامُ فِي امْسَفَرِ))

[أحمد عن عَنْ كَعْبِ بْنِ عَاصِمٍ الْأَشْعَرِيِّ]

أي ليس من البر الصيام في السفر، وخاطب إنساناً آخر بلغة أخرى، قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((من أصاب مالاً من نهاوش أذهبه الله في نهابر))

[كشف الخفاء عن أبي سلمة الحمصي]

فكلمتان تقولهما بعض القبائل، النهاوش أي بالاحتيال، والنهابر يذهب ماله في مهالك:

((من أصاب مالاً من نهاوش أذهبه الله في نهابر))

[كشف الخفاء عن أبي سلمة الحمصي]

هناك مهاوش ونهاوش، كان متقناً لهذه اللغة، متقناً للهجاتها، فكان يخاطب صاحب اللهجة بلهجته.

تأني النبي الكريم في حديثه:

وبعض أصحابه يقول:

((قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أناس من بني سعد بن بكر وكنت أصغر القوم، فخلفوني في رحالهم، ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى من حوائجهم ثم قال: هل بقي منكم من أحد قالوا: نعم خلفناه في رحالنا، فأمرهم أن يبعثوا إلي، فأتوني فقالوا: أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتيته، فلما رآني قال: ما أغناك الله فلا تسأل الناس شيئاً، فإن اليد العليا هي المنطية ـ عوض المعطية في بعض اللهجات النون مكان العين ـ وإن اليد السفلى هي المنطاة ـ المعطاة ـ وإن مال الله تعالى لمسؤول، ومنطي، قال: فكلمني رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغتنا))

[الحاكم في المستدرك عن عطية بن عروة السعدي]

((لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الْحَدِيثَ كَسَرْدِكُمْ))

[مسلم عَن عَائِشَةَ]

كان يتأنى في الحديث، كلمةً كلمة، جملة جملة، فالذي يسمع منه يحفظ، كنا في الجامعة هناك مواد كثيرة و أساتذة كثر، هناك أستاذ يحضر درسه خمسة طلاب، وأستاذ آخر عشرة طلاب، و أستاذ يحضر درسه مئتان وعشرون طالباً، السبب أنه فصيح، أفكاره واضحة جداً، تعابيره متقنة، تستمع إلى الدرس تحفظه من فمه، هذه قدرة بالإنسان، ما الذي يمنع حينما تقرأ قول سيدنا عمر: "تعلموا العربية فإنها من الدين"، ما الذي يمنع أن تقتني بعض الكتب في النحو والصرف؟ أن تحاول أن تتكلم بالفصحى مع أولادك؟ أدخل هذه اللغة لغة القرآن إلى بيتك، تعلموا العربية فإنها من الدين، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام كما قال أبو هريرة:

((لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الْحَدِيثَ كَسَرْدِكُمْ))

[مسلم عَن عَائِشَةَ]

كان يتأنى جملة جملة، كلمة كلمة، عبارة عبارة، وفي روايةٍ عن عائشة:

((إنما كان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فهماً تفهمه القلوب))

[مسند أبي يعلى الموصلي عن عائشة]

النبي الكريم يكره التنطع في الكلام والتكلف في الفصاحة:

مرة ثانية: جمال الرجل فصاحته، وفي الصحيحين عن أنسٍ رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم:

((كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا ــ التكرار أحياناً يفيد ومن صفات كلام النبي عليه الصلاة والسلام ــ يتكلم بكلامٍ فصلٍ لا هذرٍ ولا نذرٍ ويكره الثرثرة في الكلام والتشدق به وكان صلى الله عليه وسلم يكره التنطع في الكلام والتكلف في فصاحته))

[متفق عليه عن أنسٍ رضي الله عنه]

هناك إنسان أحياناً يتكلف الفصاحة، يروي شاهد إنسان وقع من على الدابة فتحلق الناس من حوله، فقال لهم: مالكم تكأكأتم عليّ تكأكؤكم على ذي جنة، أي مجنون، افرنقعوا عني، هذا التكلف، فكان النبي عليه الصلاة والسلام يكره التنطع في الكلام، والتكلف في الفصاحة.

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ يَبْغَضُ الْبَلِيغَ مِنْ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ))

[الترمذي، وأبو داود وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو]

أي فصاحته مقصودة لذاتها، ليعرض عضلاته، يستخدم كلمات غير واضحة، إنسان قال بيت شعر:

مدخوصة بنحيص الدحص بازلها له صريف صريف القعو بالنسب

***

هل فهمتم شيئاً؟ يتقصد أبياتاً صعبة، كلماتها غريبة، بل كلماتها ميتة، فهذا الذي يتقصد الفصاحة، والتقعر، والكلمات الغريبة، هذا ليس على سنة النبي عليه الصلاة والسلام.

كلام النبي الكريم ليس مخلاً بإيجاز ولا مملاً بإطالة:

وكان النبي عليه الصلاة والسلام إذا خطب لا يُخل ولا يمل، كلامه بين الإيجاز المخل والإطناب الممل، هناك إطناب ممل وهناك إيجاز مخل، بين المخل والمطل، ليس كلامه مخلاً بإيجاز، ولا مملاً بإطالة. وعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ:

((كُنْتُ أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانَتْ صَلَاتُهُ قَصْدًا – معتدلة – وَخُطْبَتُهُ قَصْدًا – أي وسطاً –))

[مسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ]

وكان عليه الصلاة والسلام لا يطيل الموعظة يوم الجمعة، إنما هي كلماتٌ يسيرة، وسأله أعرابي: "يا رسول الله عظني ولا تطل "، فتلا عليه قوله تعالى:

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾

[سورة الزلزلة]

فقال له: " كفيت "، فقال النبي: " فقه الرجل ".

أيها الأخوة، الحديث عن فصاحته أمر يطول، ولكن أتمنى أن يقتدي أحدنا بهذه الفصاحة، ويحتاج إلى شيء من الثقافة اللغوية، شيء من الكتب الأدبية المتقنة ذات الأسلوب القوي، واقتباس الكلمات، والعبارات، والصور البيانية، هذه تغني ثقافته، وتغني عبارته، ولعله يوفق في إلقاء الكلام على نهج سيد الأنام.

والحمد لله رب العالمين

السيرة – الشمائل المحمدية ٢٠١٠ – الدرس (٠٧-) : رجاحة عقل النبي عليه الصلاة والسلام

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠١٠-٠٥-١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

كلما تألق عقل الإنسان أحبّ الله عز وجل:

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع من دروس الشمائل النبوية، والموضوع اليوم رجاحة عقل النبي عليه الصلاة والسلام.

ورد في الأثر:" أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً"، فكلما تألق العقل أحبّ الله، وقد قيل: من أعجب العجب أن تعرفه ولا تحبه، ومن أعجب العجب أيضاً أن تحبه ثم لا تطيعه، معرفة، حب، طاعة، لذلك علاقتك مع المحيط الخارجي تحكمها هذه القاعدة؛ إدراك، انفعال، سلوك، أوضح مثل وقد يكون سلبياً، تمشي في بستان رأيت أفعى، في الدماغ ملف الأفعى هذا مجموع من قصص، من حقائق، من دراسات، الملف يؤكد لك أن هذه الأفعى لدغتها قاتلة، فإذا رأى الإنسان الأفعى يدرك خطرها، يضطرب، ومع اضطرابه إما يقدم على قتلها، أو يهرب منها، فإذا ادعى إنسان الإدراك الصحيح وما انفعل، معنى هذا أن إدراكه غير صحيح.

أوضح مثل لو قلنا لإنسان: على كتفك عقرب شائلة، بقي هادئاً، مرتاحاً، مبتسماً، قال لك: شكراً لك على هذه الملاحظة، وأرجو الله أن يمكنني أن أكافئك عليها، معنى ذلك أنه ما فهم مما قلت له شيئاً، لو فهم ينطلق ويخلع المعطف فوراً، إن صحّ الإدراك صحّ الانفعال، وإن صحّ الانفعال صحت الحركة، إدراك، انفعال، سلوك، علامة صحة الإدراك الانفعال، وعلامة صحة الانفعال السلوك، لذلك: أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً، أي أحبب من شئت فإنك مفارقه، إما أن تغادر هذا الذي أحببته، أو أن يغادرك، أوضح مثل زوجان محبان، متفاهمان، هناك احتمال إما أن يموت قبلها، أو أن تموت قبله، و هناك احتمال ثالث أن يموتا معاً بحادث.

أحبب من شئت فإنك مفارقه، لكن إذا أحببت الله، فالله حيّ أبدي على الدوام، لذلك مرّ إنسان على قبر وأمامه إنسان يبكي بكاءً مراً، فكان تعليقه: أحبب جهة لا تموت هو الحي الذي لا يموت، أما الذي يموت تبكي عليه، أما إن أحببت الله يعني الخلود في الجنة أحد نتائج هذا الحب.

معرفة الله عز وجل من لوازم العقل الراجح:

أيها الأخوة، العقل الراجح من لوازمه أن يعرف الله، هناك ملمح دقيق جداً أن النبي عليه الصلاة والسلام يوم أسلم سيدنا خالد، علق النبي عليه الصلاة والسلام تعليقاً مذهلاً قال: عجبت لك يا

خالد ــ لأنه أسلم متأخراً ــ عجبت لك يا خالد أرى لك فكراً! ــ أنت تملك فكراً راجحاً ــ لماذا تأخر إسلامك؟ وكأن النبي عليه الصلاة والسلام ربط بين تألق العقل وبين الإيمان، فكلما ازداد العقل إدراكاً ازداد إيماناً، أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً.

للتقريب وعاء بلوري حجمه كبير، لونه أزرق، قد يكون ثمنه خمساً وعشرين ليرة، وكأس كريستال ثمنه ألف ليرة، وهناك باستانبول جوهرة سمعت أن ثمنها مئة وخمسين مليون دولار، بحجم البيضة بمتحف، وعاء بلور كبير بعشرين ليرة، كأس كريستال بألف ليرة، هذه الجوهرة الألماس ثمنها يقدر بمئة وخمسين مليون دولار، وقلنا لإنسان: اختر، فاستكبر الوعاء إذاً لا يوجد به عقل، الذي أخذ الثاني عنده قليل من الإدراك، أما الذي أخذ الجوهرة فهذا أعقل إنسان.

بطولة الإنسان أن يعرف من يحب:

أنت بطولتك أن تعرف من تحب، الزوجة تُحب أحياناً، والصديق يُحب، والصديق الغني يُحب أحياناً، وهناك وسائل للحب لا تعد ولا تحصى، من أرجح الناس عقلاً؟ الذي أحب الله، هو الذات الكاملة، الحي الباقي على الدوام معك في كل مكان.

سيدنا يونس وجد نفسه في بطن الحوت، هل هناك من مصيبة تفوق هذه المصيبة؟ إنسان يجد نفسه فجأة في فم حوت أزرق، الذي يزن مئة وخمسين طناً، خمسون طناً لحماً، وخمسون طناً دهناً، وخمسون طناً عظماً، وجبته المعتدلة بين الوجبتين أربعة طن، إذاً يأكل الإنسان بلقمة واحدة، ويرضع وليده ثلاثمئة كيلو في كل رضعة، ثلاث رضعات تقدر بطن، قال تعالى:

﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ*فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ﴾

[سورة الأنبياء الآيات: ٨٧-٨٨]

أروع ما في الآية التعقيب:

﴿ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾

[سورة الأنبياء الآية: ٨٨]

هذه القصة القصيرة تعطي الإنسان ثقة بالله بلا حدود، السبب؟ هل عندك مشكلة تفوق أن تجد نفسك في بطن حوت؟ ومع ذلك:

﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾

[سورة الأنبياء الآيات: ٨٧-٨٨]

قانون، فأي هم، أي غم، أي حالة مرضية صعبة، أي وضع مادي صعب، أي مشكلة عائلية، أي شيء لا يرقى إلى أن تجد نفسك في بطن حوت، ومع ذلك:

﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾

تعلق العقل بالكليات:

لكن هناك سؤالاً دقيقاً ألا تجدون إنساناً ذكياً جداً، ألمعياً، وهو يعصي الله؟ ويشرب الخمر أحياناً، ولا يصلي، وقد يقترف الزنا، كيف نوفق بين رجاحة العقل وبين طاعة الله؟ الجواب بسيط، الذكاء متعلق بالجزئيات، إنسان يحمل اختصاصاً نادراً في الفيزياء النووية، أو بالكيمياء العضوية، أو بالكيمياء الفيزيائية مثلاً، هذا اختصاص نادر جداً، لكن إن لم يعرف الله، إن لم يستقم على أمره، لا يعد عاقلاً، لذلك قالوا: ما كل ذكي بعاقل، العقل متعلق بالكليات، أن تعرف الله، أن تعرف حقيقة الدنيا، أن تعمل للآخرة، أن تعرف ماذا بعد الموت، أن تضبط حركاتك وفق منهج الله، أن تفعل شيئاً تلقاه في القبر ــ العمل الصالح ــ هذا العقل، أما أي إنسان يتمتع بذكاء عال، ويدرس، و يُحصّل معلومات تودع في الدماغ، يسمى ذكياً، لذلك قالوا: ما كل ذكي بعاقل، حتى الإنسان لا يصطدم إن وجد صديقاً قريباً، أو إنساناً يتمتع بذكاء مذهل لكنه يعصي الله، نقول: هذا ذكي ولكن ليس بعاقل، ما كل ذكي بعاقل.

ما من مخلوق على وجه الأرض أرجح عقلاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم:

بالمناسبة والحديث عن رجاحة عقل النبي عليه الصلاة والسلام، ما من مخلوق على وجه الأرض أرجح عقلاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه ما من مؤمن يأتيه أجله إلا ويندم على ساعة لم يذكر الله فيها إلا النبي عليه الصلاة والسلام، نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا، أما أنتم يا أخي فساعة وساعة.

لذلك رجاحة العقل تعني أن تعيش المستقبل، ضعف العقل يدعوك إلى أن تعيش الحاضر، الغباء يدعو صاحبه أن يعيش الماضي و يتغنى به.

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة   قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

***

هذا الشاعر مدح بني تغلب، فهؤلاء يترنمون بهذه القصيدة ولا يفعلون شيئاً، لذلك الأمة الإسلامية إذا تغنت بماضيها ولم يكن حاضرها في مستوى ماضيها فهذا التغني نوع من الغباء، ينبغي أن يكون حاضرنا امتداداً لماضينا، أما في الماضي فهناك تألق رائع، والحاضر في هبوط شديد، هذه مشكلة كبيرة.

يروى أن أبا سفيان بعد أن فتح النبي عليه الصلاة والسلام مكة المكرمة،قال له أبو سفيان بن حرب: ما أعقلك! ما أوصلك! ما أرحمك!

يقول بعض العارفين بالله: ماذا يفعل أعدائي بي ؟ بستاني في صدري، إن حبسوني فحبسي خلوة، إن أبعدوني فإبعادي سياحة، إن قتلوني فقتلي شهادة، وقال: وفي الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

وقال بعض العلماء: مساكين أهل الدنيا، جاؤوا إلى الدنيا وخرجوا منها ولم يذوقوا أطيب ما فيها، إن أجمل ما فيها القرب من الله عز وجل.

العقل الراجح يرشد الإنسان إلى الخير:

أيها الأخوة، مرة قال النبي عليه الصلاة والسلام حينما أسلم سيدنا خالد: "الحمد لله الذي هداك، فقد كنت أرى لك عقلاً، ورجوت ألا يسلمك إلا إلى الخير"، هناك رواية ثانية:" عجبت لك يا خالد! أرى لك عقلاً، وأرجو ألا يسلمك إلا إلى خير، وقد أسلمك إلى الخير".

أنا أروي هذه الومضة، أحد زعماء غطفان ــ لا أقول اسمه الآن ــ جاء ليحارب النبي عليه الصلاة والسلام في موقعة الخندق، هو جالس في الخيمة فكر وقال: وله اسم خاطب نفسه باسمه يا فلان ما الذي جاء بك إلى هنا؟ أجئت لتحارب هذا الرجل الصالح؟ ماذا فعل؟ هل سفك دماً؟ هل أخذ مالاً، هل انتهك عرضاً؟ أين عقلك يا فلان؟ هذا سيدنا نعيم بن مسعود كان زعيم قبيلة غطفان، وجاء ليحارب النبي عليه الصلاة والسلام، وهو في الخيمة فكر، ما الذي جاء بك يا نعيم؟ أجئت لتحارب هذا الرجل الصالح؟ ماذا فعل؟ هل سفك دماً؟ هل أخذ مالاً؟ هل انتهك عرضاً؟ أين عقلك يا نعيم؟ وقف وتوجه إلى معسكر النبي عليه الصلاة والسلام ودخل على النبي، قال له: نعيم! قال: نعيم، قال له النبي: ما الذي جاء بك إلينا؟ قال له: جئت مسلماً وأسلم وتمّ النصر على يده، قال له: مرني ماذا أفعل؟ قال له: أنت واحد، خذل عنا ما استطعت، التقى ببني قريظة وحدثهم حديثاً عن قريش، أنهم اتفقوا على محمد، والتقى بقريش وحدثهم حديثاً عن بني قريظة، وقع الخلاف بينهم، وقال لهم: اطلبوا رهائن، وطلبوا رهائن، وقال له: إن طلبوا الرهائن ليذبحوهم، وقع الخلاف، كان لقاء ذكياً بشكل مذهل، الاتفاق على حرب النبي عليه الصلاة والسلام انتهى، وقريش ولت أدبارها إلى مكة، واليهود انحسروا عن حصونهم، وكفا الله المؤمنين القتال، الله جعل هذا النصر على يد هذا الإنسان بعد لحظة تفكير.

توافق أوامر النبي و نواهيه مع العقل:

فكر، فكر لماذا أنت في الدنيا؟ ماذا بعد الموت؟ ماذا بعد المال؟ صار معك ملايين مملينة، بيل كيت يملك تسعين ملياراً، ماذا يتغذى الظهر؟ أوقية لحمة وقد يكون نصف أوقية، بقدر ما يملك الإنسان ماذا يأكل؟ كم بذلة يلبس في آن واحد؟ ينام على كم سرير؟ الدنيا لها سقف، مهما تكن غنياً لها سقف، الآخرة ليس لها سقف، لذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام: "قد أفلح من رزق لباً".

أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: "رأس العقل بعد الإيمان بالله الحياء وحسن الخلق".

أعرابي أعلن إسلامه أمام النبي عليه الصلاة والسلام، قال له قومه: بمَ عرفت أنه رسول الله؟ ــ سؤال دقيق ــ فقال: ما أمر محمد بأمر فقال العقل: ليته نهى عنه، ولا نهى عنه فقال العقل: ليته أمر به.

أي أوامره ونواهيه متوافقة مع العقل، طبعاً لابن القيم كتاب رائع، مضمونه حتمية توافق العقل مع النقل، لأن النقل كلام الله وبيانه من رسول الله هذا النقل، والعقل ميزان أودعه الله فينا، هل يعقل أن يتناقض العقل مع النقل؟ مستحيل، التوافق بين العقل والنقل حتمي، وأنا أوسع ذلك، الحق دائرة تتقاطع فيها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، وخط العقل الصريح، وخط الفطرة السليمة، وخط الواقع الموضوعي، هناك عقل تبريري، مثلاً الذين جاؤوا إلى العراق، ودمروها، ونهبوا البترول، ودمروا كل شيء، وقتلوا أبناء العراق، مليون قتيل، ومليون معاق، وخمسة ملايين مشرد، ماذا قالوا للبشر؟ قال: جئنا من أجل الحرية، هذا كلام عقلي أم عقل تبريري؟ والعقل التبريري محتقر، كلام فارغ، نهبتم الثروات، وقتلتم الأبناء، قتل، وإعاقة، وتشرد، ودمرتم البلاد، وجئنا من أجل الحرية، فلذلك العقل التبريري مذموم، أما العقل الصريح فمحمود، والفطرة المطموسة مذمومة، والفطرة السليمة محمودة، والواقع المزور مذموم، والواقع الموضوعي محمود، والنقل غير الصحيح مذموم، والنقل الصحيح محمود، ما هو الحق؟

الحق دائرة تتقاطع فيها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، وخط العقل الصريح، وخط الفطرة السليمة، وخط الواقع الموضوعي.

لا تحل مشكلات الدنيا إلا بالإيمان بالآخرة التي تسوى فيها الحسابات:

أيها الأخوة الكرام، كلكم يعلم أنه يوجد بالعقائد الإسلامية عقائد نصل إليها عن طريق العقل، وهناك عقائد نُحصلّها عن طريق النقل، مثلاً الإيمان بالملائكة عقل أم نقل؟ نقل، هل معك دليل أن هناك ملائكة؟ لا، لكن الله أخبرنا، الإيمان بالجن عقل أم نقل؟ نقل، الإيمان بالماضي السحيق،

كيف بدأت الخليقة؟ نقل، الإيمان بالمستقبل البعيد نقل، ماذا بعد الموت؟ نقل، الجنة نقل، النار نقل، وهناك عقل:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

[سورة آل عمران الآيات: ١٩٠-١٩١]

الإيمان بالآخرة نقل أم عقل؟ نقل، الله أخبرنا في القرآن الكريم أن هناك جنة، وهناك نار، وهناك صراط، و هناك حوض، لكن هذا ابن القيم يرى أن الإيمان باليوم الآخر مع أن في الأصل الإيمان به نقلي، إخباري، سمعي، لكنه يرى أن الإيمان باليوم الآخر عقلي، تجد غنياً وفقيراً، ضعيفاً وقوياً، وسيماً ودميماً، ذكياً جداً، متألقاً ومحدوداً، لو لم يكن هناك آخرة لكان هناك ظلم شديد، عفواً تأتي فتاة مسكينة متزوجة عندها أولاد من أقصى الدنيا لتأخذ مئة دولار في الشهر، وتشتغل في اليوم عشرين ساعة حتى ترسل لأهلها هذا المبلغ، وهناك فتاة ثانية تسكن في بيت فخم، عندها سيارتان أو ثلاثة، وكل يوم نزهة، وكل يوم لقاء، وكل يوم سهرة، ما ذنب الأولى؟ لا يمكن أن تحل مشكلات الدنيا إلا بالإيمان بالآخرة، في الآخرة تسوى الحسابات، قد تكون إنساناً فقيراً لكنه مستقيم، و هناك إنسان غني فاسق أحياناً، ما ذنب هذا الفقير المستقيم؟ ولماذا هذا الفاسق الغني يفعل ما يشاء؟ كل هذه الأسئلة يجاب عنها باليوم الآخر، لذلك الله عز وجل قال:

﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

[سورة آل عمران الآية: ١٨٥]

عظمة الخلق تدل على عظمة التصرف:

شيء آخر، قالوا: عظمة الخلق تدل على عظمة التصرف، لو فرضنا شركة عملاقة في الكومبيوترات لو أنت عقدت صفقة معها، طريقة الدفع طريقة راقية، الصناعة راقية وطريقة الدفع راقية، أمر الشراء فيه تحويل، هناك سند، هناك أشياء دقيقة جداً لأن كمال الصناعة يرافقها كمال المعاملة، لذلك قالوا: كمال الخلق يدل على كمال التصرف، في هذا الكون آيات معجزة رائعة يجب أن يقابل هذه الآيات الرائعة تصرف من قبل خالق حكيم، فكما أن الله عظيم هو حكيم، لذلك كمال الخلق يدل على كمال التصرف، فكما أن هذا الكون معجز الله عز وجل عدله مطلق ورحيم وكل شيء بحساب.

أيها الأخوة، كيف عاش النبي عليه الصلاة والسلام مع هؤلاء الأعراب الجفاة غير المتعلمين؟ كم كان عقله راجحاً، وكم كانت حكمته رائعةً، وأسأل الله عز وجل أن يجعل عقولنا راجحة، وأن يلهمنا الصواب.

الموضوع العلمي:

قانون الجاذبية:

ننتقل أيها الأخوة إلى الموضوع العلمي، من بعض معلوماتكم قانون الجاذبية، هذا القانون يتلخص بأن كل كتلة في الكون تجذب كتلة أو تنجذب إلى كتلة، ما الذي يجذب الآخر؟ الكتلة الأكبر تجذب الأصغر، وما عوامل هذه الجاذبية؟ المسافة، فكلما قلّت المسافة زادت الجاذبية، وكلما ازدادت قلّت الجاذبية، هناك عاملان للجذب، الكتلة والمسافة، هذا الكون فيه آلاف مليارات المجرات، وهذه المجرات فيها آلاف مليارات الكواكب والنجوم، هذا الكم اللانهائي من الكواكب والنجوم بحسب قانون الجاذبية يجب أن تنجذب إلى بعضها بعضاً، وفي النهاية يصبح الكون كتلة واحدة، الأكبر جذب الأصغر، الكون يجب أن يصبح كتلة واحدة، ما الذي يمنع أن يكون الكون كتلة واحدة؟ دوران النجوم، من الدوران تنشأ قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة، لولا الدوران لأصبح الكون كتلة واحدة، أما كل نجم وكل كوكب يدور حول كوكب آخر، هذا الدوران يلغي تجمع الكون في كتلة واحدة، لأن هناك قوة نابذة تأتي من الدوران، هذه القوة النابذة تكافئ القوة الجاذبة.

التوازن الحركي:

الآن كل شيء في السماء يدور بمسار مغلق، يدور ويرجع، هذه الحركة الدورانية المستمرة ينشأ عنها قوة نابذة، هذه القوة النابذة تكافئ القوة الجاذبة، هذا يسمونه التوازن الحركي، الله عز وجل أشار إلى هذه القوة الجاذبة بقوله:

﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً ﴾

[سورة النمل الآية: ٦١]

أي ما الذي يجعل هذه القطعة إذا تركتها وقعت؟ ما معنى وقعت؟ أي انجذبت، لأن الأرض كبيرة تجذب كل ما عليها، فلولا هذه القوى الجاذبة لما كان لك وزن أبداً، والدليل هناك منطقة بين الأرض والقمر تنعدم فيها الجاذبية، رواد الفضاء يسبحون في الهواء، ينام على فراشه يستيقظ في سقف الغرفة، ليس له وزن أبداً، لذلك من نعم الله الكبرى الجاذبية، هذه الطاولة لو لم يكن

هناك جاذبية تجدها في السقف، مرة واحدة نضعها في هذا المكان، نعمة الوزن لا تعدلها نعمة، بل إن وزن الإنسان بالقمر عشر وزنه في الأرض، أثناء المشي إذا حرك رجله حركة خاصة سار خمسة أمتار لفوق، لذلك من فضل الله أن الله عز وجل يقول:

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرجع ﴾

[سورة الطارق الآية: ١١]

أي كل كوكب يدور حول كوكب في هذا الدوران تنشأ قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة فيبقى هذا النجم في مساره، ولولا هذا الدوران لاجتمع الكون في كتلة واحدة، والكون آلاف مليارات المجرات، والمجرة فيها آلاف مليارات الكواكب، ونحن تابعون لدرب التبانة، مجرة متواضعة جداً بل متوسطة الحجم، وفيها مليارات، والمجموعة الشمسية بأكملها لو صورنا هذه المجرة لا تُرى إطلاقاً، إذا كبرنا مكانها نجدها نقطة واحدة، المجموعة الشمسية، الكواكب السيارة، والمدارات الكبيرة الفلكية، لذلك هذا الكون العظيم يقول الله عز وجل:

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾

[سورة الرعد الآية: ٢]

كأنه يقول: رفعها بعمد لا ترونها، إنها قوى التجاذب.

الجاذبية آية من آيات الله الدالة على عظمته:

أيها الأخوة، عندما تدور الأرض حول الشمس هي تدور حول الشمس، وهي منجذبة إلى الشمس، والدليل خط سيرها ليس مستقيماً، لو أنها غير منجذبة خطها مستقيم، لكن لأنها منجذبة تدور حول الشمس، قال: بكل ثانية تنحرف ثلاثة مليمتر، من هذا الانحراف ينشأ لها مسار اهليلجي مغلق، ما سر هذا المسار المغلق؟ الجاذبية، لو لم يكن هناك جاذبية لكان مسارها مستقيماً، لكن ما الذي يربط الأرض إلى الشمس؟ الجاذبية.

لكن هناك ملمح دقيق، الأرض هنا وهذه الشمس، الآن تنتقل الأرض ومسارها اهليلجي أي بيضوي، هناك قطر أصغر و قطر أطول، فإذا اتجهت الأرض في مسارها حول الشمس إلى القطر الأصغر ضاقت المسافة بينها وبين الشمس، فكلما كبرت الكتلة ازدادت الجاذبية، وكلما صغرت قلّت، وكلما قلّت المسافة بين الكتلتين ازداد الجذب، الأرض حينما تقترب من القطر الأصغر المسافة بينها وبين الشمس تقل، فإذا قلّت هناك احتمال أن تجذبها الشمس إليها، فإذا جُذبت إليها تبخرت في ثانية، ترفع الأرض سرعتها، يتأتى من رفع هذه السرعة أن تنشأ قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة، فتبقى في مكانها:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾

[سورة فاطر الآية: ٤١]

الأرض هنا سرعتها عالية، لو بقيت على هذه السرعة لتفلتت من جاذبية الشمس ودخلت الأرض في حالة من البرودة تنهي الحياة كلها، مئتان وسبعون تحت الصفر، تنتهي الحياة، ما الذي يحصل هنا؟ تخفض سرعتها من أجل أن ينشأ عن تخفيض السرعة قوة نابذة أقل تكافئ القوة الجاذبة الأقل فتبقى على مسارها:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾

[سورة فاطر الآية: ٤١]

هذا الإله العظيم يعصى؟ هذا الإله العظيم ألا يخطب وده؟ ألا ترجى جنته؟ ألا تخشى ناره؟.

تعصي الإله وأنت تظهر حبــه ذاك لعمري في المقال شـــــنيع
لــو كان حبك صادقاً لأطعتــه إن المحب لمن يحب يطـــــيع

* * *

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

حلاوة منطق النبي عليه الصلاة والسلام :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثامن من دروس الشمائل المحمدية للنبي صلى الله عليه وسلم، وفي درس سابق كان الموضوع تجمله صلى الله عليه وسلم، ولا زلنا في هذا الموضوع، وننتقل إلى حلاوة منطقه عليه الصلاة والسلام، فقد كان عليه الصلاة والسلام حلو المنطق، لأن دعوته أساسها المنطق، الأنبياء بماذا جاؤوا؟ جاؤوا بالكلمة الطيبة:

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ [٢٤]تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾

[سورة إبراهيم الآيات : ٢٤-٢٥]

الأنبياء العظام الذين قلبوا وجه التاريخ، والذين حققوا المعجزات، جاؤوا بالكلمة الصادقة، هذه بضاعة المؤمنين، والكلمة الصادقة أعظم صدقة عند الله، لذلك كان النبي عليه الصلاة والسلام حلو المنطق، كلامه موزون، كان فصيحاً، قال عن نفسه صلى الله عليه وسلم:

((أنا أفصح العرب بَيْدَ أني من قريش))

[أخرجه الطبراني عن أبي سعيد الخدري]

كلمة بيد أني من قريش توحي أنه سيذم نفسه، لكن هذا الأسلوب البلاغي سماه العلماء تأكيد المدح بما يشبه الذم.

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

* * *

أي شجعان، أحياناً تقول: فلان كريم لكن بصراحة شجاع، عندما قلت لكن بصراحة، توقع الناس أن تذمه، فكان عليه الصلاة والسلام فيما حدث عن نفسه، قال:

((أنا أفصح العرب بَيْدَ أني من قريش))

[أخرجه الطبراني عن أبي سعيد الخدري]

وقريش أفصح قبائل العرب، والمؤمن من أخص خصوصياته، ومن أوضح سماته، ومن أشهر صفاته، أنه يضبط لسانه:

((لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه))

[أحمد عن أنس بن مالك]

الابتعاد عن ذكر المفاتن التي تثير الشهوة :

أنا أؤكد لكم، إنسان عاشر مؤمناً يقول لك: ثلاثون سنة ما سمعت منه كلمة نابية، هذه علامة الإيمان، أما المزاح الرخيص، والكلام القاسي، والتقريع الشديد، وذكر العورات، وإلقاء طرف فاحشة، هذا ليس من صفات المؤمن، حتى لو أنك ببراءة أردت أن تصف الفساد، هناك عبارات تعبر بها عن الفساد لا تليق بالمؤمن، تعلم من القرآن الكريم، قال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ* إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ ﴾

[سورة المعارج الآيات : ٢٩-٣١]

كل أنواع الشذوذ الجنسي، كل أنواع السقوط، عبر عنها الله عز وجل بكلمة رائعة، قال تعالى:

﴿ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾

[سورة المعارج الآية : ٣١]

أي بعض الدعاة أنا لا أقرهم على ذلك، إن تحدث عن فساد المجتمع يصف مفاتن المرأة، و تكشفها للأجنبي، ذكر هذه المفاتن تثير الشهوة، ولنتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه المفاتن، فعَنِ ابْنِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ أَنَّ أَبَاهُ أُسَامَةَ قَالَ:

((كَسَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُبْطِيَّةً كَثِيفَةً، كَانَتْ مِمَّا أَهْدَاهَا دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ فَكَسَوْتُهَا امْرَأَتِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا لَكَ لَمْ تَلْبَسْ الْقُبْطِيَّةَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَسَوْتُهَا امْرَأَتِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مُرْهَا فَلْتَجْعَلْ تَحْتَهَا غِلَالَةً إِنِّي أَخَافُ أَنْ تَصِفَ حَجْمَ عِظَامِهَا))

[أحمد عن أسامة بن زيد]

كلمة عظام لا يمكن أن تثير الشهوة، المقصود ليس العظام، المقصود بعض أعضاء المرأة، قال:

((مُرْهَا فَلْتَجْعَلْ تَحْتَهَا غِلَالَةً إِنِّي أَخَافُ أَنْ تَصِفَ حَجْمَ عِظَامِهَا))

من أي جامعة تخرج؟ من أدبه هذا الأدب؟

القرآن الكريم يعلم الإنسان الحياء :

أيها الأخوة، القرآن الكريم يعلمنا، قال تعالى:

﴿ أَوْ لَامَسْتُمْ النِّسَاءَ ﴾

[سورة النساء الآية : ٤٣]

أي إذا سمع طفل هذه الآية يفهم الملامسة:

﴿ أَوْ لَامَسْتُمْ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾

[سورة النساء الآية : ٤٣]

عبارة واضحة يفهمها البالغ، لكنك إذا قرأتها وفي الجلسة أطفال، حياؤهم لا يخدش أبداً، يفهمونها فهماً يتناسب مع براءتهم:

﴿ أَوْ لَامَسْتُمْ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾

[سورة النساء الآية : ٤٣]

أسلوب آخر:

﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا ﴾

[سورة الأعراف الآية : ١٨٩]

نهي القرآن والسنة والنبي عن العبارات التي تخدش الحياء :

أي هذا الذي يتكلم به الناس بالكلمات البذيئة، الفاحشة، التي تخدش الحياء، القرآن والسنة والنبي عليه الصلاة والسلام علمنا أن نبتعد عن هذه العبارات، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام علمنا من شمائله، ونحن في الحديث عن شمائله، وفي موضوع منطقه وحلاوة منطقه يقول:

((لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلا اللَّعَّانِ وَلا الْفَاحِشِ وَلا الْبَذِيءِ))

[الترمذي عن عبد الله]

حدثني مرة أخ قال لي: التقيت مع شخص أناقته لا توصف، ثيابه من أغلى الأنواع، تناسب الألوان شيء رائع جداً، أي كل شيء يرتديه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه من أعلى مستوى، قال لي: فإذا به يتكلم كلاماً بذيئاً، فقال له آخر: إما أن تلبس مثل كلامك أو تتكلم مثل لباسك، شيء جميل أن يكون الواحد جميل الصورة وحلو المنطق، والله يمكن أن تعيش عمراً مديداً، سبعون سنة، لا تتكلم بالسبعين سنة كلمة بذيئة واحدة، ولا كلمة فاحشة، ولا تسمي العورة باسمها، هناك كلام مغشوش، هناك كلام له معنى آخر، المعنى الآخر لا يليق، يرمز للأعمال الفاحشة بحروف معينة، بأفعال معينة، والناس يضحكون، وبالظاهر لا يوجد شيء، هذا الكلام مغشوش:

((مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا))

[الترمذي عن أبي هريرة]

أعظم ما في المؤمن أن سريرته كعلانيته وباطنه كظاهره :

أعظم ما في المؤمن أن سريرته كعلانيته، وباطنه كظاهره، وكان عليه الصلاة والسلام إذا تكلم أخذ بجوامع الكلم، ولأنه أخذ بجوامع الكلم كان بليغاً يأخذ بمجامع القلوب، وسبى الأرواح والعقول، وإذا تكلم ــ كما يروى ــ خرج النور من بين ثناياه، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْلَجَ الثَّنِيَّتَيْنِ، إِذَا تَكَلَّمَ رُئِيَ كَالنُّورِ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ثَنَايَاهُ))

[الدارمي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ]

هناك إنسان أحياناً يفتح فمه فتحة معقولة، وإنسان يفتح فمه ويتثاءب أمام الناس، وهناك إنسان يضع ثوبه، والله أحياناً جلسة الإنسان فيه أدب، تثاؤبه فيه أدب، عطاسه فيه أدب.

عن أبي قرصافة أنه قال: لما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وأمي وخالتي، ورجعنا من عنده منصرفين، قالت لي أمي وخالتي:

((يا بني ما رأينا مثل هذا الرجل أحسن منه وجهاً، ولا أنقى منه ثوباً، ولا ألين كلاماً، ورأينا كأن النور يخرج من فيه صلى الله عليه وسلم))

[الطبراني في الكبير عن أبي قرصافة]

والأمر بيدكم أيها الأخوة، أنت مؤمن، أنت تمثل هذا الدين، ترى بيت إيمان، لا يوجد به مزاح رخيص، و لا كلمة نابية، وهناك متابعة من الأب والأم، أحياناً الطفل ببراءة يسمع كلمة نابية في الطريق لا يعرف معناها يرددها، فينتبه الأب والأم إلى هذه النقطة، بيت المؤمن بيت منضبط.

جمال الرجل فصاحته :

كان عليه الصلاة والسلام أفصح خلق الله لساناً، وأوضحهم بياناً، أوتي جوامع الكلم، وبدائع الحكم، وقوارع الزَجر، وقواطع الأمر، والقضايا المحكمة، والوصايا المُبرمة، والمواعظ البليغة، والحجج الدامغة، والبراهين القاطعة، والأدلة الساطعة.

لذلك قالوا جمال الرجل فصاحته، دخل وفد من الحجاز على عبد الملك بن مروان، تقدمهم غلام فغضب، وقال لحاجبه: ما شاء أحد أن يدخل علينا إلا دخل حتى دخل الصبيان؟ فقال هذا الصبي الصغير الذي تقدم الوفد: أيها الأمير إن دخولي عليك لم ينقص من قدرك، ولكنه شرفني، قال له: أصابتنا سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة دقت العظم، ثلاث سنوات جفاف، وعندكم

فضول أموال، فإن كانت لله فتصدقوا بها علينا، و إن كانت لكم فتصدقوا بها علينا، وإن كانت لنا فعلامَ تحبسوها عنا؟ فقال الخليفة: والله هذا الغلام ما ترك لنا في واحدة عذراً.

مرة ثانية أيضاً وفد من وفود العرب دخل على سيدنا عمر بن عبد العزيز، تقدمهم غلام صغير فانزعج، قال له: أيها الغلام اجلس، وليقم من هو أكبر منك سناً، فهذا الطفل الصغير تبسم و قال: أصلح الله الأمير، المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فإذا وهب الله العبد لساناً لافظاً، وقلباً حافظاً، فقد استحق الكلام، ولو أن الأمر كما تقول لكان في الأمة من أحق منك بهذا المجلس.

أحياناً تجد ملكاً شاباً وكل من حوله متقدمون في السن، ولو أن الأمر كما تقول لكان في الأمة من أحق منك بهذا المجلس.

أبو حنيفة النعمان ــ رحمه الله تعالى ــ يمشي في الطريق، رأى غلام أمامه حفرة، فقال له : يا غلام، إياك أن تسقط في الحفرة، فقال له الغلام : بل إياك يا إمام أن تسقط، إني إن سقطت سقطت وحدي، وإنك إن سقطت سقط معك العالم .

من أراد أن يحفظ فليكتب :

أخطاء الدعاة أخطاء القادة، أخطاء أولي الأمر كبيرة جداً، هذه الكلمات اللطيفة، والعبارات الرائعة، والأسلوب القوي، هذا يحتاج إلى متابعة، ما الذي يمنع أن يكون معك دفتر صغير دائماً، سمعت حكمة اكتبها، سمعت بيت شعر جميل جداً اكتبه، سمعت تحليلاً لقضية اكتب عنوانها، إن أردت أن تحفظ فاكتب، الذي يحصل أن الإنسان يسمع درساً جميلاً جداً يمتلئ إعجاباً، تفضل أعد ما سمعت، تفضل لخص الدرس، لا يستطيع، شيء مؤلم جداً يستمع يتأثر لا يستطيع أن يتكلم، أنت حضرت درساً، سمعت كلمة، خطبة، محادثة، ندوة، وجدت عبارة رائعة، فكرة عميقة، كلما كتبت يمكن أن تكون الكتابة طريقاً للحفظ، لذلك قالوا: إذا أردت أن تحفظ فاكتب. أنا أقول: وتعلموا العربية فإنها من الدين، هذا كلام سيدنا عمر.
ما الذي يمنع أن يكون في البيت كتاب نحو مبسط، معجم بسيط، بالكومبيوتر يوجد كل شيء، هناك بعض البرامج على قرص واحد، عشرة آلاف عنوان، معنى عنوان أي أربعون جزءاً، كلها نصوص مضبوطة بالشكل، يمكن أن تبحث عن أي موضوع بالعشرة آلاف عنوان بثوان، العلم ميسر تيسيراً مذهلاً الآن، أنا أقول لو أيقظنا إنساناً من قبره منذ خمسين سنة، وأريناه قرصاً مدمجاً، فيه عشرة آلاف كتاب، بل عشرة آلاف عنوان، هذه الكتب يمكن أن تملأ أربع جدران

للسقف، يمكن أن تحملها بجيبك، تضعها في الكومبيوتر، وتفتح، وتقرأ ما شئت أن تقرأ، وتبحث في كل هذه الكتب.

مرة كنت بسفر كان إلى جانبي رئيس جامعة الأزهر، فالسفر طويل وأنا معي حاسوب فتحته أمامه، وكتبت اسمه في البحث، فظهر اسمه ثمانين مرة، فدهش قال لي: ما هذا؟ أنا أقول لكم أيها الأخوة الكرام، الآن إن لم يتقن الإنسان العمل على الكومبيوتر يعد أمياً، الكومبيوتر رفع الدقة من واحد إلى مليون، وخفض الجهد من مليون إلى واحد، وتطور من دراجة إلى روزرايز، ونزل سعره من روزرايز إلى دراجة.

أنا أتمنى على الآباء الذي فاتهم قطار الكومبيوتر، ألا ينسوا أولادهم من الكومبيوتر لأنه لغة العصر الآن.

بلاغة النبي عليه الصلاة والسلام في كلامه :

أيها الأخوة، جاء في المسند وغيره عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو يَقُولُ:

((خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا كَالْمُوَدِّعِ، فَقَالَ: أَنَا مُحَمَّدٌ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ، قَالَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَلَا نَبِيَّ بَعْدِي، أُوتِيتُ فَوَاتِحَ الْكَلِمِ، وَخَوَاتِمَهُ، وَجَوَامِعَهُ، وَعَلِمْتُ كَمْ خَزَنَةُ النَّارِ،

وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ، وَتُجُوِّزَ بِي، وَعُوفِيتُ وَعُوفِيَتْ أُمَّتِي، فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا مَا دُمْتُ فِيكُمْ، فَإِذَا ذُهِبَ بِي فَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، أَحِلُّوا حَلَالَهُ، وَحَرِّمُوا حَرَامَهُ.))

[أحمد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو]

كلام دقيق، أيها الأخوة، كان عليه الصلاة والسلام بليغاً في كلامه، ونحن كنا نتوهم قبل عشرين عاماً أن البشر لهم قدرات عقلية محدودة، أي هناك ذكي وهناك غبي، هذا كلام باطل، أي إنسان عنده طاقات مخبوءة، فإذا أتيح لها أن تفجر صار عبقرياً، هذا الكلام مقبول؟ نعم هو الصح، كل واحد من الأخوة الكرام إذا أراد أن يتفوق ويتألق، أنا أروي قصة لكن قد لا تصدق، إنسان أرسل ابنه إلى الأزهر ليتعلم، بعد خمس سنوات عاد يحمل الشهادة، وعيّن خطيباً في قريته، فلما ألقى خطبة أمام أبيه الأمي، بكى الأب بكاء مراً، كل من حول الأب توهموا أنه بكى فرحاً بابنه، والحقيقة خلاف ذلك، هو بكى أسفاً على نفسه، والقصة رواها لي أحد علماء دمشق، أحد علماء القرآن في دمشق توفي ــ رحمه الله ــ قال لي: هذا الرجل عمره خمسة وخمسون عاماً، ركب دابته ــ هو في صعيد مصر، وبين صعيد مصر و القاهرة حوالي ألف كيلو متر ــ واتجه نحو القاهرة، وبقي يمشي شهراً إلى أن وصل إلى القاهرة، لما وصل إلى القاهرة، قال: أين الأزعر؟ لا يحفظ اسمه، قالوا له: ما الأزعر ؟ قال: مكان التعلم، قال: اسمه الأزهر، النتيجة أوصلوه إلى

الأزهر، وفي الخامسة والخمسين بدأ في تعلم القراءة والكتابة، وتابع وما مات إلا شيخ الأزهر، في الثامنة والتسعين، هذا أعلى منصب ديني في مصر بمرتبة رئيس وزارة، لذلك بالعلم لا يوجد سن معين، اطلب العلم من المهد إلى اللحد.

فصاحة النبي عليه الصلاة والسلام :

يقول النبي عليه الصلاة والسلام عن نفسه:

((بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ فَوُضِعَتْ فِي يَدِي))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

وكان النبي عليه الصلاة والسلام فصيحاً، وكان يتكلم بلهجات العرب، قال له رجل مرة: جاءه وفد وسأله عن الصيام، فتكلم النبي لفصاحته بلغة أو بلهجة هذا الوفد، فلما سئل : هل من أمبر أمصيام في أمسفر؟ فقال : ليس من أمبر أمصيامٌ في أمسفر.

أيها الأخوة، مرة ثانية أقول لكم: جمال الرجل فصاحته، وتعلموا العربية فإنها من الدين، العربية لغة دقيقة جداً، هل تصدقون أن حركة واحدة تخطئ بها تنقل قائلها من الجنة إلى النار، بيت قاله أحد الصحابة قبل أن يقتل قال :

ولست أبالي حين أُقتَل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

فقرأها واحد:

ولست أبالي حين أَقتُل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

***

بين أُقتَل ، أَقتُل ، دقة اللغة حركة واحدة .

وعن عائشة:

((إنما كان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فهماً تفهمه القلوب))

[مسند أبي يعلى الموصلي عن عائشة]

الموضوع العلمي :

التفكر في جسم الإنسان :

أيها الأخوة الكرام، ننتقل إلى الموضوع العلمي، أقول لكم وأكرر: أنك إذا عرفت الله ثم عرفت أمره تفانيت في طاعته، أما إذا عرفت أمره ولم تعرفه تفننت في معصيته، فلذلك الله عز وجل هناك طرق لمعرفته؛ آياته الكونية، وآياته التكوينية، وآياته القرآنية، أي خلقه، وفعله، وكلامه، أي أقرب شيء للإنسان جسمه، والدليل قوله تعالى:

﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

[سورة الذاريات الآية :٢١]

فهذا الإنسان كما قال الله عنه:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾

[سورة التين الآيات : ٤–٥]

١ ــ عملية البلع و الإنسان نائم :

هناك أشياء كثيرة قد لا تنتبهون إليها، أنت نائم غارق في نوم عميق، اللعاب في فمك ازداد، تذهب إشارة إلى الدماغ، لقد زاد اللعاب في الفم، والدماغ يعطي أمراً وأنت نائم إلى لسان المزمار، فيغلق فتحة الهواء، ويفتح فتحة المريء، ويسري اللعاب إلى المعدة، لكن عند طبيب الأسنان لابدّ أن يضع لك أنبوباً لسحب اللعاب الزائد، أما من صنعة الواحد الديان وأنت نائم غارق في النوم مئات المرات في الليل يزداد اللعاب، تذهب رسالة، وأنت غارق بالنوم.

٢ ــ تزويد الجسم بنقاط إحساس بالضغط :

لك هيكل عظمي له وزن، فوق الهيكل العظمي يوجد عضلات، وما تحت الهيكل العظمي يوجد عضلات، فالهيكل العظمي مع ما فوقه من عضلات يضغط على ما تحته من عضلات، من هذا الضغط تضيق لمعة الأوعية، فإذا ضاقت نقصت التروية، في الجسم نقاط إحساس بالضغط، تذهب رسالة إلى الدماغ، والدماغ يعطي أمراً تكون نائماً فتنقلب، بعد نصف ساعة قلبة ثانية، بعد نصف ساعة قلبة ثالثة، تصوروا إنساناً نائماً صورناه تصويراً سينمائياً ينقلب بالليلة أكثر من أربعين مرة، قال تعالى:

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾

[سورة الكهف الآية : ١٨]

مرة ذات اليمين ومرة ذات الشمال لئلا يقع من على السرير، فعل من هذا؟

٣ ـ إغلاق ثقب بوتال بين الأذنين بعد ولادة الإنسان بقدرة الله عز وجل :

الجنين في رحم الأم، لا يوجد هواء، والرئتان معطلتان، القلب مصمم لدورة صغيرة، ينطلق الدم من القلب إلى الرئتين، يصفى من غاز الفحم ويأخذ الأوكسجين ثم يعود إلى القلب، في الجنين لا يوجد هواء ولا رئتان، الله عز وجل فتح بين الأذينين ثقباً، كشفها عالم فرنسي اسمه بوتال، هذه الفتحة وظيفتها أن الدم ينتقل من أذين إلى أذين بدل الدورة الصغرى، فعندنا دورة كبرى من البطين الأيسر إلى سائر الجسم، ودورة صغرى إلى الرئتين، الرئتان معطلتان في الجنين ، هواء لا يوجد، عند الولادة تأتي جلطة فتغلق هذا الثقب.

لي صديق له بنت، هذا الثقب لم يغلق، لونها زرقاء تمشي مترين و تقع، لابدّ أن تموت لأن الثقب لم يغلق، يد من تغلق هذا الثقب؟ يد الله عز وجل، في الوقت المناسب عند الولادة يغلق هذا الثقب، وتفتح الدورة الصغرى إلى الرئتين، والله أيها الأخوة، في الجسم شواهد على عظمة الله لا تعقل.

٤ ـ قدرة الله عز وجل على تزويد الطفل بمنعكس المص :

الطفل الآن ولد، تأتي أصبع القابلة على طرف شفتيه فيمصها فوراً، من علمه المص؟ المص آلية بالغة التعقيد، المص أي يحكم إغلاق شفتيه ويسحب الهواء، هل يستطيع أي أب في الأرض، أو أكبر عالم في الأرض، أن يعلم ابنه الذي ولد لتوه كيف يلتقم ثدي أمه؟ فالعلماء يسمون هذا المنعكس بمنعكس المص، آلية جاهزة، أنا أقول دائماً: لولا هذا المنعكس ما كان هذا الدرس، ولا كان جامع النابلسي، ولا دمشق، ولا كان في الأرض إنسان، كل هؤلاء البشر لولا أن هذا المنعكس خلق معهم لما عاش إنسان.

٥ ـ البويضة :

الآن البويضة انتقلت من المبيض عبر قناة فالوب إلى الرحم، هذه البويضة كيف تمشي؟ كرة صغيرة، بقناة فالوب يوجد أشعار في أرضية القناة تتحرك فتدفع هذه الكرة من المبيض إلى الرحم، لولا هذه الأشعار لما كان هذا الدرس، ولا كانت الشام، ولا كان إنسان في الأرض. والله أيها الأخوة، هناك آيات بجسم الإنسان إذا قرأتها وتأملتها يقشعر جلدك، ولا تملك إلا أن

تخر لله ساجداً، كيف يهضم الإنسان طعامه وشرابه؟ كيف يتنفس؟ كيف يتقلب في الليل؟ كيف يتعلم الطفل المشي؟ هذه كلها آيات دالة على عظمته سبحانه و تعالى.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

تجمل النبي عليه الصلاة والسلام :

أيها الأخوة الكرام، لازلنا في دروس الشمائل المحمدية، ومع الدرس التاسع من هذه الدروس، ولا زلنا في تجمل النبي عليه الصلاة والسلام، ولا بد من كلمة بين يدي هذا الموضوع، هذه الكلمة ملخصها أن هذا الإنسان الأول رتبة هو مثل أعلى لنا في كل علاقاته، في كل حركاته، في كل شؤونه، فحينما نتحدث عن النبي عليه الصلاة والسلام لأن الله عصمه من أن يخطئ في أقواله، وفي أفعاله، وفي إقراره، هو المثل الأعلى، هو قمة الكمال البشري، فالحديث عن شمائله منهج لنا، بل إن المؤمن الصادق في كل شؤون حياته هو النبي عليه الصلاة والسلام، إذا دخل البيت والطعام ليس جاهزاً ماذا يفعل؟ أي في كل الشؤون التي يعيشها الإنسان كان عليه الصلاة والسلام المثل الأعلى.

نحن ما زلنا في تجمله، الحقيقة أن الجمال حاجة أساسية في الإنسان، فأنت إذا رأيت إنساناً نظيفاً، كلامه نظيف، أفكاره واضحة، معاملته لطيفة، رحيماً، صادقاً، أميناً، هذا الذي يشدك إلى الدين، وأكبر طريق للدعوة أن تكون أنت كاملاً فقط، لأن الصدق وحده دعوة، والأمانة دعوة، والرحمة دعوة، والشجاعة دعوة، وأن تقف موقفاً حازماً دعوة، فالإسلام عظمته أن المسلم يتمتع بمكارم الأخلاق.

إن مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى، فإذا أحبّ الله عبداً منحه خلقاً حسناً.

الأخلاق هي الكلمة الفاصلة بين المؤمن والمنافق :

صدقوا أيها الأخوة أن الكلمة الفاصلة بين المؤمن والمنافق الأخلاق، لأن الله عز وجل حينما أثنى على النبي عليه الصلاة والسلام، أثنى على خلقه، قال تعالى:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

[سورة القلم: ٤]

فكان النبي عليه الصلاة والسلام فصيحاً بليغاً:

((أنا أفصح العرب بَيْدَ أني من قريش))

[أخرجه الطبراني عن أبي سعيد الخدري]

وقريش أفصح قبائل العرب، حتى في هذه العبارة سماها العلماء تأكيد المدح بما يشبه الذم، وكان كلامه فيما يسمى اليوم بالسهل الممتنع، واضح لكن لا تستطيع أن تقلده، لذلك كلما ضعفت لغة الإنسان جاءت عبارته معقدة، كلما ضعفت لغة الإنسان جاءت الجملة معقدة، وكلما قوي في اللغة جاءت الجملة بسيطة واضحة، كيف أنك تستنشق الهواء ببساطة، كيف أنك تشرب الماء، كذلك عبارة النبي عليه الصلاة والسلام، وفي الصحيحين عن أنسٍ رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً، العبرة أن يُمكّن هذا المعنى في نفس المستمع، العبرة لا أن يتكلم سريعاً كان كلامه موزوناً، كان هادئاً.

صفات كلام النبي عليه الصلاة والسلام :

١ ــ كان النبي يتكلم بكلام فصلٍ لا هذرٍ ولا نزر :

كان النبي عليه الصلاة والسلام فيما يروى عنه أنه يتكلم بكلام فصلٍ لا هذرٍ ولا نزرٍ، لا في إيجاز مخل ولا في إطناب ممل، أحياناً تلتقي بإنسان حديثه في إطناب، لكنه ممل، يقول لك: قابلت الوزير وقبل أن أدخل عليه كان بمكتبه أشخاص، أحدهم يتحدث مع الآخر، هذا الكلام كله لا يعنيني، حينما قابلته ماذا قال لك؟ يأتي بتفاصيل وجزئيات تعد عبئاً على الموضوع، فعندنا إيجاز مخل، وعندنا إطناب ممل، فكان النبي عليه الصلاة والسلام، يتكلم بكلام فصلٍ لا هذرٍ ولا نذرٍ، ويكره الثرثرة في الكلام والتشدق به، التشدق تصنع الفصاحة، مثلاً: ما لكم تكأكأتم عليّ كتكأكؤكم على ذي جنة، افرنقعوا عني.

٢ ــ يكره التنطع في الكلام والتكلف في فصاحته :

هذه فصاحة مفتعلة، ممجوجة، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يكره التنطع في الكلام والتكلف في فصاحته، كان كلامه بسيطاً عذباً، بلا تكلف، بلا تصنع، بلا تشدق.

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ اللَّهَ يَبْغَضُ الْبَلِيغَ مِنْ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ))

[الترمذي، وأبو داود وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو]

هناك رجل البلاغة عنده هدف، موضوع المعنى بالدرجة الثانية، لا بد من أن يعرض فصاحته على الناس، سبحان الله كل إنسان يتكلف الفصاحة تصبح هذه الفصاحة ممجوجة مرفوضة، كان النبي عليه الصلاة والسلام فصلٍ لا هذرٍ ــ لا في كلامه إطالة مملة ــ ولا نزرٍ ــ ليس في

كلامه إيجاز مخل ــ يكره الثرثرة في الكلام والتشدق به، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يكره التنطع في الكلام والتكلف في فصاحته.

٣ ــ لا يخلّ ولا يملّ :

شيء آخر من أروع ما قيل في كلام النبي عليه الصلاة والسلام، أنه إذا خطب لا يخل ولا يمل، لا يخل لا يأتي كلامه ناقصاً غير واضح، ولا يمل من إطالة وتكرار، ودائماً الفصاحة بين تطرفين إما إيجاز مخل أو إطناب ممل.

الآن عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ:

((كُنْتُ أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانَتْ صَلَاتُهُ قَصْدًا – معتدلة – وَخُطْبَتُهُ قَصْدًا – أي معتدلة))

[رواه مسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ]

لا في كلامه إطالة مملة ولا كلام قليل لا تفهم منه شيئاً، أعرابي قال للنبي عليه الصلاة والسلام: يا رسول الله عظني ولا تطل، فتلا عليه قوله تعالى: "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ"، فقال هذا الأعرابي: قد كفيت. أي أصبح فقيهاً.

المحاسبة غير المعقولة شيء مستحيل فالإنسان عليه أن يسدد و يقارب :

والله أيها الأخوة، أحياناً آية واحدة تكفيك، مثلاً:

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾

[سورة النساء:١]

الإنسان أحياناً يُبلغ أن هاتفك مراقب، يضبط كلامه ضبطاً يفوق حدّ الخيال،

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾

ألا تكفي هذه الآية؟ آية ثانية:

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

[سورة الجاثية: ٢١]

روى الإمام أحمد وأبو داود عَن الْحَكَمِ بْنِ حَزْنٍ الْكُلَفِيِّ قَالَ:

((وَفَدْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَابِعَ سَبْعَةٍ أَوْ تَاسِعَ تِسْعَةٍ ــ دقة الرواية أي معه ستة ــ فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ زُرْنَاكَ فَادْعُ اللَّهَ لَنَا بِخَيْرٍ فَأَمَرَ بِنَا أَوْ أَمَرَ لَنَا بِشَيْءٍ مِنْ التَّمْرِ وَالشَّأْنُ إِذْ ذَاكَ دُونٌ فَأَقَمْنَا بِهَا أَيَّامًا شَهِدْنَا فِيهَا الْجُمُعَةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَامَ مُتَوَكِّئًا عَلَى عَصًا أَوْ قَوْسٍ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ كَلِمَاتٍ خَفِيفَاتٍ طَيِّبَاتٍ مُبَارَكَاتٍ ثُمَّ قَالَ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ لَنْ تُطِيقُوا أَوْ لَنْ تَفْعَلُوا كُلَّ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ سَدِّدُوا وَأَبْشِرُوا))

[أحمد وأبو داود عَن الْحَكَمِ بْنِ حَزْنٍ الْكُلَفِيِّ]

أي سددوا وقاربوا، مثلاً أنت مضطر أن تنظف بيتك، قد تجد نملة وراء بعض الأواني، إذا كانت هذه النملة ميتة تلغي تنظيف البيت، أي موضوع الاستقامة المطلقة فوق طاقة البشر، أحياناً فرن يحمل عامل كيس طحين، قد ينزل من هذا الطحين شيء قليل جداً، الشيء المطلق ليس من صفات الإنسان، لذلك سددوا وقاربوا، أحياناً يصب لك في مركبتك الزيت حينما ينتهي هذا الوعاء، لكن لو أبقيته نصف ساعة هناك زيت لم ينزل بعد، المحاسبة غير المعقولة شيء مستحيل، هذا معنى كلام النبي عليه الصلاة والسلام:

((لَنْ تَفْعَلُوا كُلَّ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ سَدِّدُوا وَأَبْشِرُوا))

أي أنت يا بائع الزيت هل أعطيت صاحب المركبة كل الزيت؟ لا هناك قسم بقي في أطراف الوعاء من الداخل، أما لو أبقيت هذا الوعاء ساعة تجد كأس شاي قد ملئ، القصد أن الله يريد ورعك وطاعتك له، أما الشيء المطلق فوق طاقة البشر.

كثرة الكلام ينسي بعضه بعضاً فالكلام الموجز بليغ :

شيء آخر سيدنا الصديق له كلمة رائعة جداً، قال: "إيّاك وكثرة الكلام، فإن كثرة الكلام ينسي بعضه بعضاً".

لذلك الكلام الموجز بليغ، لي صديق كان من أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينيه، كان خارجاً عن سلطان بطنه، فلا يشتهي مالا يجد، ولا يكثر إذا وجد، وكان خارجاً عن سلطان الجهالة، فلا يتكلم بما لا يعلم، ولا يماري فيما علم، وكان أكثر دهره صامتاً، فإذا تكلم بذّ القائلين، وكان يُرى ضعيفاً مستضعفاً، فإذا جدّ الجد فهو الليث عادياً، أي إذا تحدث تحدث في موضوع واحد مركز، له مقدمة، له عرض، له تشقيق، مع أدلة وشواهد وقصة تؤكد، وخاتمة، وانتهى، هناك خطة، هناك كلام مركز.

مرة نقل عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: نعم الإدام ــ أي أطيب مادة دسمة، أطيب طعام يا ترى اللحم؟ــ الجوع.

أن تكون جائعاً، إذا كنت جائعاً أي طعام تراه أطيب طعام على الإطلاق، منهج، كل واحد منكم يقول: أكلت طعاماً ما ذقت مثله في حياتي، هو أكل عادي جداً لكن كنت جائعاً، نعم الإدام الجوع، أي أطيب طعام تأكله أن تكون جائعاً فقط.

تناقض التعالي والكهنوت والهيبة المفتعلة مع الكمال :

وروى الطبراني والبزّار عن جابر:

((كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاه الوحي أو وعظ قلت: نذير قومٍ أتاهم العذاب، فإذا ذهب عنه كذلك رأيته أطلق اللسان وجهاً وأكثرهم ضحكاً وأحسنهم بشراً))

[الطبراني والبزّار عن جابر]

كان النبي عليه الصلاة والسلام مرحاً، يبتسم دائماً مع أصحابه، لذلك ورد نص دقيق جداً: "الوقار في البستان من قلة المروءة"، أي أنت في نزهة، من خصائص النزهة أن تكون مرحاً، أن تكون لطيفاً، أي من كان معك تكلم أحدهم بطرفة فضحكوا جميعاً اضحك معهم، التعالي، والكهنوت، والهيبة المفتعلة، هذه تتناقض مع الكمال، فكان النبي عليه الصلاة والسلام مع أصحابه كأنه واحد منهم.

مرة جاء رجل إلى مجلس النبي عليه الصلاة والسلام ونظر فيهم، قال أيكم محمد؟ والله يتكلم في هذا النص سنة، ليس له ثياب خاصة؟ أبداً، مقعد خاص؟ أبداً، مع أصحابه، أيكم محمد؟ طبعاً هذا النص له عدة روايات، إحدى رواياته: قال النبي الكريم: أنا، هناك رواية ثانية، قال له صحابي جليل: ذاك الوضيء، ألا تكفيه فخراً؟

بالمناسبة، في معركة بدر كان أصحابه حول ألف وزيادة، والرواحل ثلاثمئة، فالنبي هو قائد الجيش، زعيم الأمة، أصدر توجيهاً، قال: "كل ثلاثة على راحلة ــ يتناوبون عليها ــ وأنا وعلي وأبو لبابة على راحلة، جعل نفسه كأحد الجنود، ركب الناقة فلما جاء دوره في المشي توسلا صاحباه أن يبقى راكباً، قال: ما أنتما بأقوى مني على السير ــ كان رياضياً ــ ولا أنا بأغنى منكما عن الأجر".

تأثير النبيالكريم في قلوب السامعين إذا وعظ وتطييب نفوسهم :

كان عليه الصلاة والسلام إذا وعظ أثّر في قلوب السامعين، وطيّب نفوسهم، حتى إنهم لتذرف دموعهم، وترق وتخشع قلوبهم، ويرتقي حالهم إلى المشاهدات والمعاينات.

كان مجلس النبي مجلس علم وأدب، فعَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ قَالَ وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ قَالَ قُلْتُ نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا))

هذا من تواضعه، أحياناً يشكو لك إنسان زوجته، فترد عليه: والله أنا عندي زوجة لا يوجد منها، هذا سوء أدب، شكا لك أولاده، تقول له: أنا عندي أولاد قمة في الكمال، ليس من الأدب إذا إنسان شكا لك شيئاً أن تعطيه العكس، هذا يولد الازدراء ويشيع الحزن في قلبه.

((فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا ذَاكَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

[مسلم عَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ]

هذا منهج، نحن المؤمنون ساعة وساعة، لكن إياكم ثم إياكم ثم إياكم أن تتوهموا أن ساعة طاعة وساعة معصية، لا ساعة تألق وساعة فتور، مقام المؤمنين ساعة وساعة، مقام الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا، فرق كبير بين المقامين، المؤمنون يتفاوتون؛ ساعة إقبال وساعة عدم إقبال، أو ساعة إقبال وأربع ساعات عدم إقبال، أو خمس ساعات إقبال وساعة عدم إقبال، أي النفوس لها إقبال ولها إدبار، إذا أقبلت فاحملوها على النوافل، وإذا أدبرت فاحملوها على الفرائض، بحالة الإدبار أدِّ الفرائض تكن أعبد الناس، مع الإقبال صلِّ قيام الليل لك أجر.

طبعاً هذا الكلام درس لنا، أنت في بيت من بيوت الله تتلقى درس علم، لك حال مع الله، تحس بسعادة، وأنك والجنة كهاتين، لكن في البيت هناك ضجيج أحياناً، هناك شيء لم يتحقق، الطعام لم يكن جاهزاً، عليك ضغط عمل كبير جداً، المواعيد متضاربة، فقد تتألم، فحالك في البيت غير حالك في المسجد، وكأنك في المسجد في ضيافة الله، "إنّ بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوّارها هم عمّارها، فطُوبى لِعَبْد تطهّر في بيته ثمّ زارني، وحُقّ على المزور أن يُكْرِم الزائر".

للمؤمن ميزات لا يعلمها إلا الله عز وجل :

أحياناً الله عز وجل يكرمك بالحكمة:

﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾

[سورة البقرة : ٢٦٩]

يكرمك بالحلم، كاد الحليم أن يكون نبياً، أحياناً يكرمك بالرضا، راض عن الله، راض عن بيتك، عن أهلك، عن أولادك، أحياناً يكرمك بالتفاؤل فلا يوجد تشاؤم، أحياناً تجلس مع إنسان لا تستطيع أن تقف بعد هذا اللقاء، وإنسان آخر راض عن الله، أنا أقول: يجب عليك ــ والله أعلم ــ إذا دخلت بيتاً من بيوت الله كما علمنا النبي عليه الصلاة والسلام أن تقول إذا دخلت:

((اللّهمّ افْتح لي أبواب رحمتك))

[مسلم عن أبي حميد]

أنت الآن في بيت من بيوت الله، في ضيافة الله، طبعاً لا يوجد ضيافة مادية، تجلس على الأرض، لا يوجد شراب ولا عصير ولا أكلات معينة، لا يوجد شيء، هناك سجاد أنت جالس على الأرض، لكن والله أيها الأخوة، قد يقدم لك ضيافة تساوي الدنيا وما فيها، أنك مستقيم، أنك تحب الله، أنك عرفت الآخرة، أن الله جعلك حليماً، حكيماً، رحيماً، بيتك منتظم، محبوب، ما عندك كلمة غلط، لا يوجد مزاح فاحش إطلاقاً، لا يوجد موقف فيه تردد، للمؤمن ميزات لا يعلمها إلا الله، لكن قد يغفل عنها الإنسان.

مرة قرأت لسيدنا عمر كلمة قال: كان إذا أصابته مصيبة، قال: الحمد لله ثلاث مرات، الحمد لله إذ لم تكن في ديني، والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، والحمد لله إذ ألهمت الصبر عليها، كلام دقيق، لم تكن في ديني، مصيبة في المركبة نصلحها، تلف شيء في البيت نجدده، لكن ليست في الدين. الحمد لله ثلاث مرات: الحمد لله إذ لم تكن في ديني، والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، والحمد لله إذ ألهمت الصبر عليها.

شفافية النبي عليه الصلاة والسلام :

أيها الأخوة الكرام، يتحدثون عن كلمة، مصطلح جديد، اسمه الشفافية، مصطلح الآن رائج جداً والكل يتكلم بالشفافية، لكن أقدم لكم لقطة من الشفافية، النبي عليه الصلاة والسلام دخل مرة لبستان فرأى ناقةً، فحنت لما رأته، فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ ؟ " فَجَاءَ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ : أَفَلا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ))

[أبو داود عن عبد الله بن جعفر]

هذه شفافية عالية جداً، والله أحياناً إذا ضرب إنسان هرة، تبتعد عنه، وتنظر إليه وكأنها تعاتبه، الإنسان كلما ارتقى عنده شفافية عالية، حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام يقول: "إن حجراً كان يسلم علي"، المؤمن يتجاوب مع الطبيعة، قطرة ماء تعني عنده شيئاً كثيراً، نبتة صغيرة، هناك شخص رأى نبتة صغيرة تسبح الله، يدوسها بقدمه، رأى نملة يسحقها، هناك إنسان كل ما حوله يعتني به، ننهي هذا الموضوع بهذا الحديث :

((وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ فَقَالَ رَجُلٌ إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، تولى عليكم، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ))

[الترمذي عَنْ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ]

أيها الأخوة، الحقيقة أن شمائل النبي عليه الصلاة والسلام منهج لنا، وهذه الشمائل ينبغي أن نقتدي بها، أو أن نتخلق بها، لأن النبي عليه الصلاة والسلام هو الإنسان الأول في الأرض:

((سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا))

[أخرجه مسلم عن ابن عمر]

الموضوع العلمي :

الجاذبية نعمة عظيمة من نِعم الله عز وجل :

والآن ننتقل إلى الموضوع العلمي، قال تعالى:

﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ الْأَرْضَ كِفَاتًا *أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾

[سورة المرسلات: ٢٥-٢٦]

كفاتاً، مأخوذة من فعل كفت يكفته كفتاً ضمه وقبضه، فالأرض من صفاتها أنها تكفت، أي تجذب وتضم وتقبض، هذه البطاقة لو تركتها تنجذب إلى الأرض، لولا أن الله جعل الجاذبية لما أمكنك أن تتعامل مع الأشياء، أي هناك أماكن بين الأرض والقمر تنعدم فيها الجاذبية، فقد يستيقظ رائد

الفضاء في سقف المركبة لأنه لا يوجد وزن، هناك نعمة لا تخطر على بال واحد منا، أن هذا الشيء تضعه يبقى في مكانه، لمَ يبقى في مكانه؟ لأنه ينجذب إلى الأرض، هذا الوزن، الوزن هو انجذاب الشيء إلى مركز الأرض، أنت في الأرض، وزنك ثمانون كيلو، في القمر ثمانية كيلو، الجاذبية ما رأينا خلافها، شيء طبيعي هذه تضعها تبقى في مكانها، لولا أن الأرض تكفت ما عليها إليها لكانت الحياة مستحيلة، كل واحد له بيت، غرفة الضيوف فيها كراسي وثيرة بمكانها، لو لم يكن هناك جاذبية لوجدت الكراسي في السقف، أحياناً يعرضون في المركبة الفضائية مكاناً ليس فيه جاذبية، حاجات الإنسان بالهواء، يقفز قفزة يصير في السقف، ليس له وزن أبداً، كلمة الوزن تعني الجاذبية، هذه نعمة لا تعدلها نعمة:

﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴾

[سورة المرسلات: ٢٥]

الماء كيف يستقر في البحر إن لم يكن هناك جاذبية؟ الماء مستقر بالبحر، في بيتك، حاجات بيتك، مركبتك، كله مستقر هذا الاستقرار سببه الجاذبية، هذا قانون الجاذبية دقيق جداً، هذا متعلق بالكتلة، ومتعلق بالمسافة، لكن هذا الكون يتحرك لولا الحركة لجمع الكون كله في كتلة واحدة، الأكبر تجذب الأصغر، الكون كله، مئات ألوف مليارات المجرات تصبح كتلة واحدة، لكن ما الذي يحصل؟ كل كوكب يدور، حينما يدور ينشأ من دورانه قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة، فيبقى في مكانه، كل شيء يدور من هذا الدوران ينشأ من دورانه قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة فيبقى في مكانه، والدليل ائت بوعاء من الماء وأدره، الماء لا ينزل، عندما دار الماء الذي في هذا الوعاء ينشأ من دورانه قوة نابذة، فلولا هذا التوازن بين القوة النابذة و القوة الجاذبة لتجمع الكون كله في كتلة واحدة.

الوزن من نعم الله الكبرى :

والله هناك نعم أيها الأخوة، قد لا تخطر في البال، كل شيء له وزن، وأنت لك وزن، لكن الآن بعد الوصول إلى القمر رواد الفضاء دخلوا بأماكن لا يوجد بها وزن أبداً، والحياة لا تحتمل، في بعض المشاهدات حاجات الرائد في السقف، أحياناً رائد الفضاء يستيقظ فيجد نفسه بالسقف، ليس له وزن أبداً، فالوزن من نعم الله الكبرى، في الوزن هناك استقرار، لذلك الله عز وجل قال:

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ﴾

[سورة الأنعام : ١١]

بربكم تمشي أنت فوق الأرض أم في الأرض؟ فوق الأرض، الآية في الأرض، لأن الله عز وجل عدّ الهواء جزءاً من الأرض، الهواء كم يساوي؟ خمسة وستون ألف كيلو متر، هذا الهواء يدور مع الأرض، تصور الهواء لا يدور مع الأرض، ما الذي يحصل؟ ينشأ عواصف وأعاصير، سرعتها ألف و ستمئة كيلو متر في الساعة، لا تبقي شيئاً على وجه الأرض، أحياناً تجد موجة رياح شديدة، سرعتها مئة وخمسة وعشرون تهدم بعض المنازل، هناك أعاصير بأمريكا سرعتها ثمانمئة كيلو متر، لا تبقي شيءاً في الأرض، لا بيت، ولا مركبة، ولا شيء، فإذا كان الهواء ثابتاً والأرض تدور معنى ذلك هناك تيار، هناك عاصفة أو زعزعة سرعتها ألف و ستمئة كيلو متر في الساعة، لا تبقي ولا تذر.

أيها الأخوة: قضية الجاذبية من نعم الله الكبرى، لكن هناك شيئاً قد لا ننتبه له، لك وزن والوزن متعلق بالحجم والكثافة وما إلى ذلك.

أرجو الله عز وجل أن يكون هذا الكون بآياته الدالة على عظمة الله سبيلاً إلى معرفته.

والحمد لله رب العالمين

السيرة – الشمائل المحمدية ٢٠١٠ – الدرس (١٠–) : فصاحة النبي صلى الله عليه وسلم وجمال خطابه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠١٠–٠٧–٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

إتقان اللغة العربية جزء من الدين :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس العاشر من دروس شمائل النبي عليه الصلاة والسلام، وكنا قد وصلنا إلى فصاحته وجمال خطابه صلى الله عليه وسلم، مقولة تردّد كثيراً أن جمال الرجل فصاحته، ولأنك مسلم، ولأن الدعوة إلى الله هي العمل الأول، والدليل قوله تعالى:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

[سورة فصلت الآية : ٣٣]

أخوتنا الكرام، بادئ ذي بدء إذا قال الله عز وجل يصف المؤمنين بأنهم يتلون كلام الله حق تلاوته:

﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾

[سورة البقرة الآية : ١٢١]

أنت كمسلم ينبغي أن تقرأ القرآن الكريم، لكن الله وصف المؤمنين بأنهم يتلون هذا الكتاب حقّ تلاوته، قال بعض العلماء: حقّ تلاوته أن تتلوه وفق قواعد اللغة العربية، بل إن سيدنا عمر ــ عملاق الإسلام ــ يقول: "تعلموا العربية فإنها من الدين".

هذه اللغة العربية اصطفاها الله لتكون لغة خطابهم، لغة كلامهم، لغة قرآنهم، لذلك تعلم هذه اللغة جزء من الدين، طبعاً هذه العربية لها خصائص، كطرفة حركة واحدة تنقل قائلها من الجنة إلى النار، أحد الصحابة حينما قتل قال:

ولست أبالي حين أُقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

***

لو إنسان قرأ البيت:

ولست أبالي حين أَقتُل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

***

إلى جهنم وبئس المصير، حركة واحدة، بين أن تقول: ولست أُبالي حين أُقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي، وبين أن تقول: ولست أُبالي حين أَقتل مسلماً، هناك دقة بالغة في لغتنا، لذلك إتقان هذه اللغة جزء من الدين، وكلام سيدنا عمر واضح: "تعلموا العربية فإنها من الدين".

و النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أنا أفصح العرب بَيْد أني من قريش))

[أخرجه الطبراني عن أبي سعيد الخدري]

أفصح كلام بعد القرآن الكريم كلام النبي عليه الصلاة والسلام :

حينما كنا في الجامعة في كلية الآداب تعلمنا أن أفصح كلام بعد القرآن الكريم كلام النبي عليه الصلاة والسلام، هذا الكلام يقتضي أن نهتم بتعليم أبنائنا قواعد اللغة العربية:

﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾

[سورة البقرة الآية : ١٢١]

حق تلاوته أن تتلوه وفق قواعد اللغة العربية، مثلاً لو كان الإنسان ضعيفاً في اللغة، وقرأ قوله تعالى: "إنما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ"، هذا كفر، الله يخشى؟

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾

[سورة فاطر الآية : ٢٨]

جزء من دينك إتقان لغة القرآن الكريم، وهذا كلام يحتاج كل أب إلى أن يعتني بلغة أبنائه.

حق تلاوة القرآن أن يتلوه الإنسان وفق قواعد اللغة العربية و وفق قواعد التجويد:

شيء آخر:

﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾

[سورة البقرة الآية : ١٢١]

أن تقرأ القرآن الكريم وفق قواعد اللغة، وشيء آخر أن تقرأ القرآن الكريم إن أمكن وفق قواعد علم التجويد، هناك إدغام، و إقلاب، و إظهار، و إخفاء، و مدود، و وقف لازم، ووقف غير لازم، في قواعد التجويد، أي كتاب نستحق أن نقرأه كالقرآن كلام خالق الأكوان؟

((فَضْلُ كَلامِ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ))

[الترمذي عن أبي سعيد]

حينما اختص الله اللغة العربية لكلامه معنى ذلك أن هذه اللغة لها شأن كبير.

اللغة العربية من أرقى اللغات الإنسانية وأساسها نظام الأسرة :

أيها الأخوة، تعلمنا في الجامعة أيضاً أن اللغة العربية من أرقى اللغات الإنسانية، وهذه شهادة أعداء المسلمين، شهادة موضوعية، اللغة العربية من أرقى اللغات الإنسانية، لكن المشكلة أن اللغة تقوى بقوة أصحابها، وتضعف بضعفهم، مثلاً: تقول: رنا، رنوت إلى المنظر، رنا أي نظر مع المتعة، منظر جميل، سهل أخضر، بحر أزرق، سماء زرقاء صافية، غابة خضراء، هذا المنظر تقول: رنوت إلى هذا المنظر، حدج: نظر مع المحبة، رنا نظر مع المتعة، رنوت إلى هذا المنظر، أما حدج: نظر مع المحبة، وفي بعض الأحاديث الشريفة:

((حدث القوم ما حدجوك بأبصارهم))

[فقه اللغة عن ابن مسعود]

النظر مع التفحص استشف، أمسكت القماش وتحسسته بيدي، نقول: استشف، النظر مع التمطي استشرف، استشف، رنا، حدج، الآن حملق، ظهر حملاق العين، ظهر باطن الجفن الأحمر، حملق، ظهر حملاق العين.

الآن لاح، المنظور ظهر واختفى، لاحت طائرة بين الغيوم، المنظور ظهر واختفى، أما لمح: إنسان يمشي في الطريق، هناك باب مفتوح نظر فإذا امرأة متفلتة وراء الباب، فغضّ بصره، نقول: لمح، فهناك لاح، ولمح، وحملق، وحدج، ونظر، مع الاحتقار نظر شذراً، وإذا كان قلقاً من أن يقع السقف نقول: شخص:

﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

[سورة الأنبياء الآية : ٩٧]

أكثر من خمسين أو ستين فعلاً لنظر، وكل فعل له حالة خاصة، فهذه اللغة من أرقى اللغات الإنسانية بل أرقاها، لأنها لغة متصرفة، أي هناك عرف، يعرف، اعرف، عارف، معروف، عراف، معرفة، تعريف، هناك جد وهناك أولاد وهناك أحفاد، لغتنا العربية أساسها نظام الأسرة.

الفضل في ثبات اللغة العربية يعود إلى القرآن الكريم :

صدقوا أيها الأخوة التعمق في اللغة شيء ممتع جداً، التعمق في اللغة يعطيك فناً آخر، الأدب في تعريفاته الدقيقة: تعبير مثير عن حقائق الحياة، تعبير فني، تعبير جمالي، تعبير جميل، مثلاً يقول أحدهم: تكاثرت علي المصائب، هذا تعبير علمي، التعبير الأدبي:

رماني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي فـــــي غشاء من نبال
فكنت إذا أصابتني سهـــام تكسرت النصال على النصالِ

* * *

شبه المصائب بالسهام، رماني الدهر بالأرزاء ــ أي بالمصائب ــ رماني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي ــ قلبي ــ فـــــي غشاء من نبال، فكنت إذا أصابتني سهـــام تكسرت النصال على النصالِ.

أيها الأخوة الكرام، هل تصدقون، أن طلاب اللغة الإنكليزية في بريطانيا لا يستطيعون قراءة شعر شكسبير ولا فهمه إطلاقاً، وشكسبير جاء في القرن السادس عشر، ثلاثمئة عام تفصل بين إنتاج شكسبير وبين هذا العصر، لا يمكن أن يقرأ شعر شكسبير ولا بريطاني إلا أن يقرؤه مترجماً، من اللغة الإنكليزية إلى اللغة الإنكليزية، أي هذه اللغة في تبدل، أما أن يقرأ طالبنا في الصف العاشر شعراً قاله شاعر قبل ألف وخمسمئة عام كأن يقرأ عن امرئ القيس، ماذا قال؟

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلِ بصبح وما الإصباح منك بأمثل

* * *

هذه أبيات من قصائد مشهورة من المعلقات قالها شعراء قبل ألف وخمسمئة عام، والفضل في ثبات هذه اللغة إلى القرآن الكريم، ومن اللغات اللاتينية فرنسي، إنكليزي، إيطالي، إسباني، هذه لغات لاتينية لها أم واحدة، لكن تبدل هذه اللغات جعلها بضع عشرة لغة، أما اللغة العربية لولا القرآن الكريم لكانت عشرين لغة، بفضل هذا القرآن الكريم الشعر الذي قيل قبل ألف وخمسمئة عام يقرؤه طلابنا في الصف العاشر بعد ألف وخمسمئة عام، وهذه ميزة تنفرد بها اللغة العربية.

أيها الأخوة الكرام، أحد الأعراب قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله عظني ولا تطل، فتلا عليه قوله تعالى:

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾

[سورة الزلزلة الآيات :٧-٨]

فقال هذا الأعرابي: كفيت، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: فَقُهَ الرجل.

كثرة الكلام ينسي بعضه بعضاً :

وروى الإمام أحمد وأبو داود عَن الْحَكَمِ بْنِ حَزْنٍ الْكُلَفِيِّ قَالَ:

((وَفَدْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَابِعَ سَبْعَةٍ أَوْ تَاسِعَ تِسْعَةٍ فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ زُرْنَاكَ فَادْعُ اللَّهَ لَنَا بِخَيْرٍ فَأَمَرَ بِنَا أَوْ أَمَرَ لَنَا بِشَيْءٍ مِنْ التَّمْرِ وَالشَّأْنُ إِذْ ذَاكَ دُونٌ فَأَقَمْنَا بِهَا أَيَّامًا شَهِدْنَا فِيهَا الْجُمُعَةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَامَ مُتَوَكِّئًا عَلَى عَصًا أَوْ قَوْسٍ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ كَلِمَاتٍ خَفِيفَاتٍ طَيِّبَاتٍ مُبَارَكَاتٍ ثُمَّ قَالَ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ لَنْ تُطِيقُوا أَوْ لَنْ تَفْعَلُوا كُلَّ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ سَدِّدُوا وَأَبْشِرُوا))

[أحمد وأبو داود عَن الْحَكَمِ بْنِ حَزْنٍ الْكُلَفِيِّ]

فكان النبي عليه الصلاة والسلام أفصح العرب يحدثنا عن نفسه فيقول:

((أنا أفصح العرب بَيْدَ أني من قريش))

[أخرجه الطبراني عن أبي سعيد الخدري]

وقريش أفصح قبيلة، علماء البلاغة قالوا: هذا أسلوب رائع في اللغة سماه علماء البلاغة تأكيد المدح بما يشبه الذم، تقول عن إنسان: والله فلان كريم لكن شجاع، لما قال لكن تتوقع أن يأتي الذم، هذا أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم.

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

* * *

سيدنا الصديق قال: "إيّاك وكثرة الكلام، فإن كثرة الكلام ينسي بعضه بعضاً".

الكلام المختصر، لذلك يؤثر عن الصديق رضي الله عنه أنه قال: "نضر الله وجه من أوجز في كلامه، واقتصر على حاجته".

وقالوا: البلاغة بين الإيجاز المخل والإطناب الممل.

من له حال مع الله تعالى يشعر براحة نفسية لأنه ضيف الله :

النبي عليه الصلاة والسلام والحديث عن شمائله والحديث عن جمال منطقه: كان عليه الصلاة والسلام إذا وعظ أثّر في قلوب السامعين، وطيّب نفوسهم، حتى إنهم لتذرف دموعهم، وترق وتخشع قلوبهم، ويرتقي حالهم إلى المشاهدات والمعاينات، فعَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ ــ وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ــ قَالَ:

((لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ قَالَ قُلْتُ نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا))

[مسلم عن حنظلة الأُسَيِّدِيِّ رضي الله عنهما]

أي كل واحد من أخواننا الكرام هو في الجامع له حال مع الله عز وجل يشعر براحة نفسية، راحة نفسية واضحة جداً، السبب لأنك ضيف الله عز وجل:

"إنّ بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوّارها هم عمّارها، فطُوبى لِعَبْد تطهّر في بيته ثمّ زارني، وحُقّ على المزور أن يُكْرِم الزائر" .

تصدق أن تأتي من مكان بعيد، والطريق يحتاج إلى ساعتين، من مركبة إلى مركبة، وازدحام لا يحتمل، وأن تأتي وتجلس على الأرض لا يوجد ضيافة، ولا كأس شاي، ولا مقعد مريح، أليس كذلك؟ وأن تعود بلا شيء؟

"إنّ بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوّارها هم عمّارها، فطُوبى لِعَبْد تطهّر في بيته ثمّ زارني، وحُقّ على المزور أن يُكْرِم الزائر ".

ذكر الله للإنسان وهو في الصلاة أكبر من ذكر الإنسان له :

والله أيها الأخوة، معنى لا أرتوي من ترداده، حينما قال الله عز وجل:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾

[سورة العنكبوت الآية : ٤٥]

العلماء قالوا: ذكر الله أكبر ما في الصلاة، والدليل:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾

[سورة طه الآية : ١٤]

لكن ابن عباس يقول: "ذكر الله لك وأنت في الصلاة أكبر من ذكرك له".

كيف؟ قال: إنك إن ذكرته أديت واجب العبودية، وإن ذكرك منحك الأمن، الأمن أكبر نعمة، الأمن غير السلامة، السلامة ألا يقع مكروه لكن الأمن ألا يتوقع الإنسان مكروهاً،، قال تعالى:

﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾

[سورة الأنعام الآيات: ٨١-٨٢]

للنفس إقبال وإدبار :

أيها الأخوة الكرام:

((....نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا ــ دقق في أدب الصديق ــ قَالَ أَبُو بَكْرٍ فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا ذَاكَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

[مسلم عن حنظلة الأُسَيِّدِيِّ رضي الله عنهما]

معنى ذلك أن لك حال في المسجد، لك حال مع رسول الله، لك حال في علاقتك بالله، فإذا عدت إلى البيت، مشكلات الحياة، والطعام، والشراب، والأولاد، والدراسة، قد يضعف هذا الحال، وهذا وضع طبيعي، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا))

[من الجامع لأحكام القرآن عن محمد بن كعب]

إياك ثم إياك ثم إياك أن تفهم أنها ساعة طاعة ــ لا سمح الله ولا قدر ــ وساعة معصية، إن للنفس إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فاحملوها على النوافل، وإذا أدبرت فاحملوها على الفرائض، هناك إقبال و هناك إدبار، إن كان هناك إقبال فأكثر من النوافل، و إن كان هناك فتور فاكتفِ بالفرائض.

الشفافية الحقيقية تتجلى عند رسول الله :

الآن يقولون: هناك شفافية، وهو مصطلح مستخدم كثيراً، الشفافية الحقيقية عند رسول الله، قال: أعرف حجراً بمكة كنت أسلم عليه ويسلم علي، أحياناً الإنسان حينما يرتقي ويرتقي يصبح شفافاً، يتعامل مع ما حوله تعاملاً رائعاً، المطر لها معنى عنده، رحمة الله، الكائن الحي قريب من المؤمن، أحياناً الإنسان يتقي أن يدوس على نملة، أحياناً وردة صغيرة يتقي أن يدوس عليها، تسبح الله دعها وشأنها، فكلما اقترب المؤمن من الله أصبح شفافاً، دخل النبي عليه الصلاة والسلام دخل مرة لبستان فرأى ناقة فقال:

((مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ ؟ " فَجَاءَ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ : أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ))

[أبو داود عن عبد الله بن جعفر]

وقد ورد:

((وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ فَقَالَ رَجُلٌ إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ))

[الترمذي عَنْ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ]

على المؤمنين الاعتناء بلغتهم العربية لأنها لغة القرآن و لغة أهل الجنة :

أيها الأخوة الكرام، أتمنى عليكم من أعماق قلبي أن تعتنوا بلغتكم العربية، لأنها لغة القرآن، ولغة أهل الجنة، لأنها لغة اصطفاها الله لكتابه، ولقرآنه، وليس صعباً أن تعتني بهذه اللغة، أنا أنصحكم أن تقرؤوا كتاباً مضبوطاً بالشكل، قراءة جهرية، أي اقرأ عشر صفحات يومياً، بعد حين تتملك ما يسمى بالسليقة، ترفع الفاعل سليقة، وتنصب المفعول سليقة، اقرأ بصوت مرتفع نصاً بليغاً مضبوطاً بالشكل، وأول نص بليغ في حياة المسلمين القرآن الكريم، كنا في الجامعة فنصحنا أستاذ كبير في اللغة أن نقرأ عشر صفحات من القرآن الكريم يومياً من أجل لغتنا، من أجل ضبط اللسان، من أجل ضبط حركات الحروف في الكلمات، فقراءة القرآن بصوت جهوري وبطريقة صحيحة تكسب الإنسان سليقة، بعد حين تعرب بالسليقة لا بالمعلومات.

هناك تجربة جاؤوا إلى بدوي في تاريخ مئة وخمسين بعد الهجرة، فقالوا له: لماذا تقول جاء أخوك؟ قال: هكذا الصح، فقال السائل لهذا الأعرابي: ألا تقول رأيت أخاك، قال له: اختلف الوزن، هذا الأعرابي لا يعرف فاعلاً ولا مفعولاً ولا فعلاً ماضياً مبنياً على الفتح، عنده سليقة، كيف تقول: جاء أخوك؟ قال: هكذا، قال له: ألا تقول رأيت أخاك؟ كان أخوك صار أخاك، قال له: اختلف الوجه، هذه السليقة، إذا قرأت القرآن بصوت جهوري، عشر صفحات يومياً، هذه نصيحة تلقيناها في الجامعة، لا علاقة لها بالعبادة إطلاقاً، علاقتها هذه النصيحة بامتلاك السليقة، السليقة أن تقرأ نصاً مضبوطاً بالشكل حرفاً حرفاً، حتى تعرف حركات عين الفعل، نصر ينصُر أم ينصَر؟ ينصُر، أخَذَ يأخُذُ، سمع يسمع، عين المضارع كيف تعرفه؟ بالسليقة، فإذا قرأت القرآن بصوت جهوري عشر صفحات يومياً، أو خمس مع مضي الزمن تنمو عندك سليقة، تشعر أن الفاعل مرفوع، سليقة، و المفعول به منصوب.

أيها الأخوة الكرام، هذا عن فصاحته صلى الله عليه وسلم، وهذا عن تجمله في الحديث، وكان أفصح العرب وقال عن نفسه:

((أنا أفصح العرب بَيْدَ أني من قريش))

[أخرجه الطبراني عن أبي سعيد الخدري]

وقريش أفصح قبيلة، ويعد كلام النبي عليه الصلاة والسلام أفصح كلام بعد القرآن الكريم إطلاقاً.

الموضوع العلمي :

كيفية معرفة الله عز وجل :

والآن ننتقل إلى موضوع علمي، أيها الأخوة، أصل الدين معرفة الله، السؤال الدقيق، كيف تعرف الله؟ الله عز وجل كما تعلمون لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، ولكن القلوب تصل إليه، ولا تحيط به، فرق كبير أن تركب مركبتك إلى الساحل، فهذه المركبة يمكن أن توصلك إلى الساحل، لكن هذه المركبة لا تستطيع أن تخوض بها البحر، توصلك إلى الساحل وتنتهي مهمتها، كذلك هذه العقول توصلك إلى الله، وتنتهي مهمتها، ولكن هذه العقول لا يمكن أن تحيط بالله:

﴿ لاّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾

[سورة الأنعام الآية : ١٠٣]

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾

[سورة البقرة: ٢٥٥]

فلذلك إذا كان أصل الدين معرفته، فكيف نعرفه؟ طبعاً هناك آيات كونية، هذه الآيات بين أيدينا، الشمس، لسان اللهب طوله مليون كيلو متر، كطرفة أحد الشيوخ معلوماته العلمية محدودة جداً، سمع أن كل العلماء يتكلمون عن الإعجاز العلمي، فقال لطلابه: يا بني صعد الإنسان إلى الشمس، عنده طالب نبيه، قال له: سيدي الشمس حرارتها تقدر بعشرين مليون درجة، ولسان اللهب طوله مليون كيلو متر، فشعر هذا الشيخ بالحرج فقال: صعدوا إليها في الليل.

التفكر في خلق السماوات والأرض طريق معرفة الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام، جزء من إيمانك أن تعرف الله من خلال آياته، الدليل:

﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾

[سورة الجاثية الآية :٦]

طريق معرفة الله التفكر في خلق السماوات والأرض:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

[سورة آل عمران الآيات : ١٩١-١٩٢]

النظرية العملاقة التي قلبت مفاهيم الفيزياء مدرجة في آية واحدة في القرآن الكريم :

أيها الأخوة الكرام، أينشتاين أكبر علماء الفيزياء، اكتشف السرعة المطلقة في الكون، هذه السرعة المطلقة إنها سرعة الضوء، كل جسم سار بسرعة الضوء أصبح ضوءاً، أي يكبر حتى يصبح ضوءاً، هناك تجربة دقيقة جداً جاؤوا بقطار و بنوا رصيفاً بطوله تماماً، بالسنتمتر، وسار هذا القطار بأعلى سرعة، حيث قدرت سرعته بثلاثمئة وخمسين كيلو متراً، وضعوا آلة تصوير في منتصف الرصيف، صورت القطار وهو يسرع، صورة القطار أطول من الرصيف، هو في الحقيقة طوله يطابق طول الرصيف تماماً، فكل جسم سار وأسرع فإذا وصل إلى سرعة الضوء أصبح ضوءاً، الآن إذا سبق الضوء تراجع الزمن، إذا قصر عن الضوء تراخى الزمن، ساعة بالفضاء الخارجي يقابلها في الأرض مئة عام، تراخى الزمن، جسم مشى مع الضوء أصبح ضوءاً، قصر عن الضوء تراخى الزمن، سبق الضوء تراجع الزمن، هذا ملخص نظرية أينشتاين، هل تصدقون أن هذه النظرية العملاقة التي بدلت مفاهيم الفيزياء في الأرض مدرجة في القرآن الكريم:

﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾

[سورة الحج الآية : ٤٧]

والعرب تعد السنة القمرية، والقمر يدور حول الأرض دورة كل شهر، لو وصلنا خطاً بين مركز الأرض ومركز القمر، هذا الخط هو نصف قطر الأرض، مع نصف قطر القمر، مع المسافة بين الأرض والقمر، هذا الخط هو نصف قطر الدائرة التي هي مسار القمر حول الأرض، لو ضربنا هذا الرقم باثنين، لكان القطر، لو ضربنا بالبي ٣.١٤ لكان المحيط، لو ضربناه باثني عشر السنة، ضرب ألف، ألف سنة، نحسب كم هي المسافة التي يقطعها القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام، المفاجأة التي قد لا تصدق أننا إذا قسمنا هذه المسافة أي ما يقطعه القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام على ثواني اليوم، ثواني اليوم ستون بستين، بأربع وعشرين، لكانت المفاجأة الصاعقة أن الجواب هو سرعة الضوء الدقيقة، ٢٩٩ ٦٥٢، أي ما يقطعه القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام يقطعه الضوء في يوم واحد.

هذه النظرية العملاقة التي قلبت مفاهيم الفيزياء مدرجة في آية واحدة،

﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾

هذا البحث يزيد عن ثمانين صفحة، لخصته لكم بهذه الكلمات السريعة، ولكن هذا البحث ألقي في مؤتمر الإعجاز العلمي الخامس الذي عقد في موسكو،

﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾

والحمد لله رب العالمين

السيرة – الشمائل المحمدية ٢٠١٠ – الدرس (١١-) : أرجحية عقل النبي عليه الصلاة والسلام

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠١٠-٠٧-١١

بسم الله الرحمن الرحيم

أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها وأشقاهم فيها أرغبهم فيها :

أيها الأخوة الكرام، نحن في الشمائل المحمدية، ونحن في الدرس الحادي عشر من دروس شمائل النبي عليه الصلاة والسلام، والموضوع اليوم أرجحية عقل النبي عليه الصلاة والسلام.
بادئ ذي بدء: ورد أن أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً، كلما نما عقلك صحّ اختيارك، خالق السماوات والأرض، الذات الكاملة، صاحب الأسماء الحسنى، والصفات الفضلى، من بيده كل شيء، من بيده مقاليد السماوات والأرض، من إليه يرجع الأمر كله، هذا الإله العظيم حينما ينمو عقلك تجد أن أفضل شيء أن تعرفه.
ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء، للتقريب إناء زجاجي رخيص ثمنه عشر ليرات، حجمه كبير، كأس كهذا الكأس لكن من الكريستال ثمنه ألف ليرة، جوهرة بمتحف توبي كابي في اسطنبول، ثمنها مئة وخمسون مليون دولار، أكبر ألماسة في العالم بحجم البيضة، لو وضعنا هذا الإناء الكبير من أرخص أنواع الزجاج إلى جانبه كأس الكريستال وهذه الجوهرة، وقلنا لك: اختر، فإذا اخترت هذا الحجم الكبير المقدر بعشرين ليرة يكون العقل لا فائدة منه إطلاقاً، أما حينما تختار هذه الجوهرة نقول: عقلك راجح، القضية قضية اختيار، هناك إنسان اختار الدنيا، الدنيا متعبة، أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها، وأشقاهم فيها أرغبهم فيها، بالدنيا هناك سؤال كبير ثم ماذا؟ بعد أن تملك ملايين مملينة ثم ماذا؟ القبر، بعد أن تبلغ أعلى منصب ثم ماذا؟ القبر، بعد أن تنغمس في متع الأرض، بعد أن تنغمس في كل متعة حسية، ثم ماذا؟ ماذا بعد هذا؟ الموت، القبر، فإذا كانت هذه الدنيا تخسرها في ثانية واحدة قد تجمعها في خمسين عاماً وتخسرها في ثانية واحدة، أي حجمك المالي ــ بيلكيت حجمه المالي يقدر بتسعين مليار دولار، و هو شاب بالأربعينات ــ منوط بدقات القلب، فإذا توقف القلب، هذا المبلغ الضخم ليس لك، لورثتك، أي كل مكانتك، كل عظمتك ــ إن صحّ التعبير ــ كل هيمنتك، كل شهاداتك، كل مناصبك، كل حجمك المالي، الاجتماعي، قوة تأثيرك، هيمنتك، كل شيء حققته في الدنيا عند الموت ينتهي، ما جمعته في ستين عاماً تخسره في ثانية واحدة، فما هذه الحياة الدنيا؟

إن أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها، وأشقاهم فيها أرغبهم فيها.

الوقت أثمن شيء في حياة الإنسان :

لذلك البطولة أن تعرف الله، عقلك الراجح يوازن، أيها الأخوة الكرام، أحياناً الإنسان ــ لا سمح الله ولا قدر ــ يصاب بمرض عضال، لو أخبر أن هناك عملاً جراحياً، احتمال نجاحه ثلاثون بالمئة، لكن هذا العمل الجراحي يكلف ثمن بيتك، البيت تملكه لا تملك غيره، أقسم لكم بالله هذا المريض لا يتردد لثانية واحدة أن يبيع بيته ليجري هذه العملية التي يتوهم من خلالها أنها تمد في حياته بضع سنوات، أليس كذلك؟

إذاً أثمن شيء في حياتك الوقت، أنت وقت، أنت بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منك.

سؤال ثان: إنسان أمامنا الآن أمسك مئة ألف ليرة أو خمسمئة ألف ليرة وأحرقها، بماذا نحكم عليه جميعاً؟ بالجنون، لأنه أتلف المال والمال قوام الحياة، الآن هذا الذي يبيع بيته ليجري عملية جراحية يتوهم من خلالها أنها تمد بعمره بضع سنوات يعيشها بين أهله من أي شيء انطلق؟ انطلق من أن الوقت أثمن من المال، ضحى بماله كله من أجل الوقت، فهذا الذي يحرق المئة ألف يعد سفيهاً فكيف الذي يتلف وقته؟ للساعة الواحدة طاولة الزهر، سهرات فارغة، حديث باطل، غيبة، نميمة، متابعة أفلام، هذا الذي يمضي كل حياته في أباطيل، في شهوات، في أشياء لا تقدم ولا تؤخر، أليس هذا ضعفاً في تفكيره؟ لذلك أنت بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منك.

من هداه عقله إلى طاعة الله عز وجل كان عقله راجحاً :

لذلك أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً، كلما هداك عقلك إلى طاعة الله، إلى أن تخطب وده، أن تتقرب إليه بالعمل الصالح، أن تنفع المخلوقات، أن تكون في خدمة عباده، أن تكون في رضوانه، أن تتحرك في مرضاته، كلما هداك عقلك إلى هذا كان عقلك راجحاً، أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً.

لا تنسى المثل؛ إناء بلور رخيص جداً، ثمنه عشرون ليرة، كأس كريستال، ثمنه ألف ليرة، جوهرة ثمنها مئة وخمسون مليون دولار، إذا قلنا لك: اختر أحد هذه الثلاثة، فاخترت هذا الإناء الكبير، ونظرت إلى الحجم، ولم تنتبه إلى قيمة هذه الجوهرة، فأنت مغبون، من هو المغبون؟ الذي باع آخرته بدنياه.

قوام الدين والدنيا أربعة رجال؛ عالم مستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم، وغني لا يبخل بماله، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه، فإذا ضيّع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم، وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدنيا غيره.

ما كلّ ذكي بعاقل :

أيها الأخوة الكرام، معنى ذلك أنه ما كل ذكي بعاقل، صار عندنا مصطلحان، فلان ذكي، فلان عاقل، الذكاء متعلق بالدنيا، الذكاء متعلق باختصاص نادر، الذكاء متعلق بنيل شهادة عليا، الذكاء متعلق بتجميع الأموال، الذكاء متعلق بنيل منصب رفيع، هذا كله من الذكاء، النجاح في الدنيا يسمى صاحبه ذكياً، أما الذي ينجح في الآخرة يسمى صاحبه عاقلاً، لذلك ما كل ذكي بعاقل، قد تجد إنساناً يحمل اختصاصاً نادراً، الفيزياء النووية، هناك اختصاصات نادرة جداً، اختصاصات بالذرة، اختصاصات بالفضاء الخارجي.

أيها الأخوة الكرام، صار هناك فرق بين الذكي وبين العاقل، يمكن أن يأخذ الإنسان دكتوراه باختصاص نادر جداً، يكون له دخل كبير جداً لكن لا يعرف الله، عرف الدنيا ووصل إليها.

أيها الأخوة الكرام، نظام الدنيا شيء ونظام الآخرة شيء آخر، نظام الدنيا يصلح للدنيا ـ وقد تستغربون ـ الكفر والعدل، ولا يصلح للدنيا الإيمان والظلم، الكفر والعدل يصلح للدنيا، الغرب أخرجوا الدنيا من كل حساباتهم، لكن ضبطوا أمورهم، هناك قوانين يخضع لها كل الناس، الإنسان له حقوق وعليه واجبات، هذا شيء ثابت لذلك أتقنوا الدنيا فملكوها، هناك قيم مستنبطة من الحياة الغربية، قيم العمل، قيم الصدق والأمانة، قيم التعامل الواضح، أتقنوا الدنيا فملكوا الدنيا، لكن نحن مع الأسف الشديد لم نتقن الدنيا والشيء المؤلم أننا لم نتقن الآخرة، لذلك قالوا:

ما أجمل الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

***

تعلق الذكاء بالجزئيات و العقل بالكليات :

أيها الأخوة، كأن الذكاء متعلق بالجزئيات، بينما العقل متعلق بالكليات، إنسان عرف الله عاقل، عرف أن بعد الموت حياة أبدية، استقام على أمر الله عاقل، ضبط دخله عاقل، ما كسب مالاً حراماً عاقل، ما أنفق المال في معصية عاقل، علاقته بالمرأة زواج فقط، ليس عنده علاقة أخرى، أنجب أولاداً رباهم عاقل، كلما كان عملك وفق منهج الله كلما كان عملك متعلقاً بالآخرة وكنت عاقلاً أكثر، وكلما اهتممت بالدنيا فقط وتفوقت بها كنت أقل عقلاً، والله هناك تفوق بالدنيا في العالم الغربي شيء لا يصدق، هناك إنجاز، وأجهزة، واكتشافات، يمكن للإنسان أن يركب الطائرة على ارتفاع أربعين ألف قدم، مقعده سرير، أمامه كل شيء، كل محطات القنوات، الانترنيت، يأكل أطيب الطعام، على ارتفاع أربعين ألف قدم، اختراع مهم جداً، هذا العقل البشري إذا وجهته إلى الدنيا فعل المستحيل، هذا العقل البشري كأن الله عز وجل ما زودنا به إلا لنعرفه من خلاله، أنت استخدمته استخداماً محدوداً في الدنيا.

عفواً هل من الممكن أن تشتري كومبيوتراً صناعياً، ثمنه خمسون مليوناً لتجعله طاولة؟ أنت استخدمته استخداماً تحتقر قيمته، هذا حاسوب صناعي، يقدم لك ميزات مذهلة، استخدمته كطاولة! وهذا الذي يستخدم عقله من أجل الدنيا فقط يا خيبة أمله، العقل يمكن أن تصل به إلى الله. أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً، لذلك أقول لكم: ما من مخلوق على وجه الأرض أعقل من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن كل وقته كان عملاً صالحاً، ما ضيع من وقته ثانية، استقامته مذهلة، وجد تمرة على السرير، قال : "والله يا عائشة لولا أني أخشى أن تكون من تمر الصدقة لأكلتها"، يبدو أنه اشتهاها، لكنه خاف أن تكون من تمر الصدقة، عقل راجح وورع شديد.

الحياة الدنيا فرصة ذهبية لا تعوض لدفع ثمن الآخرة فيها :

أيها الأخوة، حينما تعرف سرّ الحياة، هذه الحياة الدنيا فرصة ذهبية لا تعوض لدفع ثمن الآخرة فيها، المؤمنون عندما يتجولون في الجنة يقولون:

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾

[سورة الزمر: ٨٧]

لولا أن كنا في الأرض، واستقمنا على أمره، وأدينا العبادات، وعملنا الصالحات، ما وصلنا إلى هنا، للتقريب، طبيب أخذ دكتوراه في الطب، وتابع دراسته في جامعات كبيرة، ورجع طبيباً يحمل أعلى درجة علمية، وصار دخله فلكياً، فإذا دفع كل مريض ألف ليرة، وكان عنده ثلاثون مريضاً، أو خمسون مريضاً مثلاً فدخله فلكي ، هذا الطبيب مع هذا الدخل الكبير اشترى بيتاً فخماً، ومركبة فاخرة، مثلاً مرّ أمام الجامعة يقول: لولا أنني طالب في هذه الجامعة ما كنت بهذا الدخل، لولا أنني انتسبت إلى هذه الجامعة، ونلت منها الدكتوراه، ثم تابعت الدراسة، لما كنت بهذا الدخل، لذلك يوم القيامة المؤمنون في الجنة:

﴿ قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾

[سورة الزمر: ٨٧]

لولا أن كنا في الأرض، وعرفنا الله في الأرض، واستقمنا على أمره في الأرض، وأقبلنا عليه في الأرض، وتقربنا إليه في الأرض، لما كنا هنا:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾

[سورة الزمر: ٨٧]

مرة ثانية: أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً، أيها الأخوة الكرام، أبو سفيان حينما فتحت مكة نظر إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقال له: ما أعقلك! وما أحلمك! وما أرحمك! وما أوصلك!.

أي عقل ما بعده عقل، رحمة ما بعدها رحمة، حكمة ما بعدها حكمة، وفاء ما بعده وفاء.

الآية التالية أول شهادة من الله لنبيه في أرجحية عقله :

أول شهادة من الله لنبيه في أرجحية عقله قوله تعالى:

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾

[سورة القلم: ١-٢]

ورد في بعض الآثار، "إن النبي عليه الصلاة والسلام رأى مجنوناً في الطريق، فسأل أصحابه سؤال العارف: من هذا ؟ قالوا : هذا مجنون، قال : لا، إنه مبتلى، المجنون من عصى الله".

الدنيا ما لم تنتقل منها إلى معرفة الله فهي دنيا وليست عليا :

أيها الأخوة، شيء آخر:

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾

[سورة هود: ٢٨]

الأمر واضح جداً، هناك آخرة، هناك جنة إلى الأبد، هناك نار إلى الأبد، لهذا الكون إله عظيم، ورب رحيم، وخالق عظيم، هناك منهج، هناك قرآن، هناك سنة، هناك أعمال صالحة، هذا الذي عرف الحقيقة وعرف سرّ وجوده وغاية وجوده، قال:

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾

[سورة هود: ٢٨]

أي إذا شخص لم يأكل في حياته إلا الدبس، فأقسم بالله العظيم أنه ما من شيء حلو أطيب من هذا الدبس، كلامه صحيح، لأن أفقه ضيق، لو ذاق العسل لما قال هذا الكلام، أهل الدنيا لا يعرفون إلا الدنيا، لذلك الفلاح عندهم والنجاح المال، والمتع، والطعام، والشراب، والبيت، والمركبة:

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾

[سورة الروم: ٧]

لذلك الدنيا ما لم تنتقل منها إلى معرفة الله فهي دنيا ليست عليا.

القرب من الله عز وجل أجمل ما في الدنيا :

أقوال كثيرة يقولها العلماء: في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

ماذا يفعل أعدائي بي؟ بستاني في صدري، إن أبعدوني فإبعادي سياحة، وإن حبسوني فحبسي خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة، فماذا يفعل أعدائي بي؟ الدنيا جنة لمن عرف الله.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾

[سورة هود: ٢٨]

لذلك قال بعض العلماء: مساكين أهل الدنيا، جاؤوا إلى الدنيا وخرجوا منها ولم يذوقوا أطيب ما فيها، إن أجمل ما فيها هو القرب من الله عز وجل.

من عرف الله عرف كل شيء و من فاتته معرفة الله فاته كل شيء :

أيها الأخوة، يقول بعض العلماء: إن الله تعالى لم يعطِ جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا كحبة رمل من جميع رمال الدنيا، وإن محمداً صلى الله عليه وسلم أرجح الناس عقلاً، وأفضلهم رأياً، لأنه عرف الله.

أعيدكم مرة ثالثة إلى المثل، لما اخترت هذه الجوهرة ــ الألماسة ــ التي ثمنها يقدر بمئة وخمسين مليون دولار، ولم تعبأ بهذا الإناء الكبير، ولا بهذا الكأس، فعقلك راجح، فبطولتك أن تحسن اختيارك، ماذا اخترت؟ إنسان اختار الدنيا، اختار المال فقط، اختار المتعة، اختار اللذائذ، الشهوات، اختار المرأة، وإنسان تعرّف إلى الله، إن عرفته عرفت كل شيء، وإن فاتتك معرفته فاتك كل شيء.

أيها الأخوة الكرام، سيدنا خالد عندما دخل في الإسلام دخل متأخراً، هناك ملمح للنبي خطير جداً، دخل سيدنا خالد على النبي عليه الصلاة والسلام وسلم وقال له: السلام عليك يا نبي الله، لأن خالداً دخل بمعارك ضد النبي عليه الصلاة والسلام، وكان قائد جيش، وهو أحد أسباب عدم انتصار المؤمنين في أحد، لكن عندما أسلم قال: السلام عليك يا رسول الله ــ خالد أحد العمالقة من القادة الكبار ــ فقال عليه الصلاة والسلام : " تعالَ أقْبِل، فأقبل، فقال عليه الصلاة والسلام: الحمد الله الذي هداك ، فقد كنتُ أرى لك عقلاً، ورجوت ألا يسلمك إلا إلى الخير.

معنى ذلك أن من شأن العاقل، من شأن الذكي، أن يهديه عقله وذكاؤه إلى الله عز وجل، إلى الله معرفة، وطاعة، وقرباً.

هناك نص آخر يقول له: "عجبت لك يا خالد أرى لك عقلاً، وأرجو ألا يسلمك إلا إلى الخير، وقد أسلمك إلى الخير".

أنت امتحن عقلك بقدر طاعة ربك، النبي الكريم قال: "قد أفلح من رُزِقَ لبًّا".

هناك بعض الفواكه، لها قشرة جميلة، لكن العبرة باللب، فإذا وجدت قشرة بلا لب فلا تأخذها، للطرفة هناك إنسان يأخذ برتقالة ويقشرها بشكل دقيق، ويأخذ لبها، ثم يعيد القشرة كما كانت، فإذا

أمسكها إنسان آخر وجدها فارغة، فيصاب بخيبة أمل، فالعقل لب، والإنسان بلا عقل، بلا لب.
يقولون: مرة كان أبو حنيفة النعمان ــ رحمه الله ــ يلقي درساً حول صلاة الفجر، ودخل إنسان طويل القامة، عريض المنكبين، له مكانة، يرتدي جبة، وغطاء على رأسه، فيبدو أن أبا حنيفة ــ رحمه الله تعالى ــ ظنه عالماً كبيراً، فكان يشعر بألم في رجله وكان يمدها، مستأذناً طلابه، فلما رآه رفع رجله فجلس هذا العالم الكبير الشأن، العريض القامة، والحديث عن صلاة الفجر فسأل سؤالاً قال: كيف نصلي الفجر إذا طلعت الشمس قبل الفجر؟ قال له: عندئذ يمد أبو حنيفة رجله.
أحياناً سؤال يُحجمك، سؤال يُنهيك، والإنسان دائماً يرى الشخص يأخذ فكرة عنه من ثيابه، فإذا تحدث نسي ثيابه، وإذا سافر معه نسي حديثه، إن شاء الله نتابع هذا الموضوع في درس قادم.

الموضوع العلمي :

الإعجاز في السنة عن عودة بلاد العرب جنات و أنهارا :

ننتقل إلى الموضوع العلمي.
أيها الأخوة الكرام عالم من أشهر علماء البيولوجيا، ومتخصص في المنطقة الواقعة بين إفريقيا وبين الجزيرة العربية، التقى بعالم مسلم فسأله هذا العالم المسلم هل عندك دليل على أن أرض العرب كانت بساتين وأنهاراً؟ الصحراء ــ الربع الخالي ــ ماذا يوجد فيها؟ رمال فقط، منطقة قاحلة لا نبات، ولا نهر، فقال له هذا العالم المسلم: هل عندك دليل على أن أرض العرب كانت بساتين وأنهاراً؟ نحن نعرف تدمر، تدمر كانت بساتين وأنهاراً، الأرض لها دورات عديدة، لها أكثر من عشر دورات غير الدورتين المألوفتين، حول نفسها وحول الشمس، هذه الدورات تغير وضع الخصوبة والجفاف في الأرض، الربع الخالي كان جنات، كان بساتين، كان أنهاراً، تدمر كذلك، كانت جنات، وبساتين، وأنهاراً، قال له هذا العالم: هل عندك دليل على أن أرض العرب كانت بساتين وأنهاراً؟ فقال: هذا معروف عندنا، وهذا شيء يعرفه العلماء المتخصصون، قال له: ما الدليل؟ قال: في الجزيرة العربية رواسب نهرية تلاحظ في أماكن عدة، وقد عثر على قرية مدفونة تحت الرمال في الربع الخالي، فيها مناطق متحجرة، وقد عثر على مناطق أخرى متحجرة، فلما فحصت فإذا هي جذوع أشجار كبيرة، وهذا كله يؤكد أن هذه البلاد كانت بساتين وأنهاراً، فمنطقة الربع الخالي الصحراء، الجرداء، القاحلة، كانت مفعمة بالبساتين والأنهار، وهذا شيء ثابت عن علماء الجيولوجيا الذين وجدوا المستحاثات وقد أكدوا ذلك، ثم سأله سؤالاً آخر فقال: هل عندك دليل على أن بلاد العرب ستعود بساتين وأنهاراً؟ فقال: هذا أيضاً شيء معروف عندنا، قال: وما الدليل؟ قال: كتل الجليد الضخمة تتجه نحو الجنوب، وهذا الذي سبب قبل أعوام

شتاءً قارساً جداً في أوربا، وأمريكا، وإن اتجاه هذه الكتل الجليدية نحو الجنوب سوف يغير مناخ الأرض، وبتغير مناخ الأرض سوف تتغير خطوط المطر، ولا بد من أن يأتي يوم تعود بلاد العرب فيه كما كانت، مروجاً وأنهاراً.

الآن عالم مسلم مع علماء الجيولوجيا، وعلماء الجيولوجيا لا يعنيهم إطلاقاً القرآن والسنة، عندهم مستحاثات، عندهم دراسات، عندهم أبحاث دقيقة جداً، تؤكد أن منطقة الربع الخالي، الصحراء الجرداء القاحلة كانت مروجاً وأنهاراً وسوف تعود مع تبدل خطوط المطر مروجاً وأنهاراً.

فقال هذا العالم الجيولوجي المسلم ما قولك في رجل قال قبل ألف وأربعمئة عام:

((لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْمَالُ وَيَفِيضَ حَتَّى يَخْرُجَ الرَّجُلُ بِزَكَاةِ مَالِهِ فَلاَ يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهَا مِنْهُ وَحَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

أدق كلمة في الحديث كلمة تعود، أي كانت، النبي الأمي الذي عاش قبل ألف وأربعمئة عام، يقول: حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً، هذا الشيء ثبت الآن بالأبحاث الجيولوجية، والمستحاثات، وما إلى ذلك، أما أن يأتي نبي أمي قبل ألف وأربعمئة عام يقول هذه الحقائق! لذلك هذه الأمور التي تحدث عنها النبي ليس من أنه يعلم الغيب، ولكن الله أخبره بذلك، هذا من إخبار الله له:

((لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ وفي نهاية الحديث وَحَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

الإيمان الكامل برسول الله صلى الله عليه و سلم :

لذلك قال تعالى:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾

[سورة النجم: ٣-٤]

أحاديث كثيرة النبي تنبأ بها فيما يؤكد أن كلامه ليس من ثقافته، ولا من معطيات عصره، ولا من اجتهاده، ولا من بيئته، ولكنه وحي يوحى، لذلك يقول سيدنا سعد بن أبي وقاص: "ثلاثة أنا فيهن رجل وفيما سوى ذلك أنا واحد من الناس، ما صليت صلاة فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها، ولا سرت في جنازة فحدثت نفسي بغير ما تقول حتى أنصرف منها ــ الشاهد هنا ــ وما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حق من الله تعالى".

فلذلك أيها الأخوة، أنت حينما تقرأ القرآن الكريم، وتقرأ فيه عن ألف وثلاثمئة آية تتحدث عن حقائق اكتشفت الآن، وحينما تقرأ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتكتشف أن الذي جاء

به ليس من ثقافته، ولا من معطيات عصره، ولا من اجتهاده، ولا من بيئته، ولكنه وحي يوحى، أرجو الله سبحانه وتعالى أن نرزق الإيمان الكامل برسول الله صلى الله عليه وسلم.

والحمد لله رب العالمين

السيرة – الشمائل المحمدية ٢٠١٠ – الدرس (١٢-) : رجاحة عقل النبي عليه الصلاة والسلام

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠١٠-٠٧-١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

من آتاه الله عقلاً راجحاً هذا العقل يعد سبب فلاحه ونجاحه :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني عشر من دروس شمائل النبي عليه الصلاة والسلام، والحديث عن رجاحة عقله، وقد ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام:

((قد أفلح من رُزِقَ لبّاً))

[البيهقي في شعب الإيمان عن قرة بن هبيرة]

اللب هو العقل، فالإنسان إذا آتاه الله عقلاً راجحاً، فاستخدم هذا العقل في معرفة الله، وفي معرفة منهجه، هذا العقل يعد سبب فلاحه ونجاحه، ما الفرق بين الفلاح والنجاح؟ النجاح في الدنيا، الإنسان قد ينجح في جمع المال، قد ينجح بتسلم منصب رفيع، لكنك إذا قلت له: لقد أفلح، أي نجح في الدنيا والآخرة، نجح في الأبد، لذلك قال تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

[سورة الزمر الآية : ١٥]

((قد أفلح من رُزِقَ لبّاً))

[البيهقي في شعب الإيمان عن قرة بن هبيرة]

أيها الأخوة، هناك حديث آخر للنبي:

((رأس العقل بعد الإيمان بالله الحياء وحسن الخلق))

[الديلمي عن أنس]

التفكر في خلق الله عز وجل أساس معرفته :

لا تنسى أن هذا العقل أعقد آلة في الكون، بل إن العقل عاجز عن فهم ذاته، ماذا أقول لكم، بالدماغ ذاكرة حجمها كحبة العدس، تتسع لسبعين مليار صورة، الصور مرتبة بحسب الأهمية، الدماغ يحوي مئة و أربعين مليار خلية سمراء استنادية لم تعرف وظيفتها بعد حتى الآن، وهناك خلايا قشرية يزيد عددها عن أربعة عشر مليار خلية، أما الدماغ ففيه مئة و أربعون مليار خلية، أما خلايا القشرة أربعة عشر مليار، فيها المحاكمة، فيها التذكر، فيها الاستنباط، فيها الاستنتاج، فيها التخيل، فيها الحكم، كل النشاط العقلي في هذه الخلايا القشرية التي تقترب من أربعة عشر

مليار خلية، هذا الدماغ ما أصله؟ نطفة وبويضة، لقحت النطفة البويضة، كيف دخلت إليها؟ برأس النطفة غشاء رقيق تحته مادة نبيلة، هذه المادة تذيب جدار البويضة، حينما يصطدم الحوين الأقوى الأسبق إلى البويضة يتمزق الغشاء، المادة التي تحت الغشاء مادة نبيلة تذيب جدار البويضة وتدخل، وعندئذ نقول: البويضة قد تلقحت، حوين واحد من ثلاثمئة لأربعمئة لخمسمئة مليون حوين، في اللقاء الزوجي من ثلاثمئة لأربعمئة لخمسمئة مليون حوين، تحتاج البويضة لحوين واحد، فإذا دخلت أصبحت بيضة ملقحة، الآن في أثناء انتقالها من المبيض إلى الرحم عبر قناة فالوب تنقسم إلى عشرة آلاف قسم دون أن يزيد حجمها، لو زاد حجمها لا تستطيع متابعة السير، وتستقر في الرحم، والحديث عن علم الأجنة حديث يأخذ بالألباب.

أيها الأخوة الكرام، إن أردت أن تعرف عظمة الله ينبغي أن تتفكر في خلقه، حوين برأسه مادة نبيلة تذيب جدار البويضة، مغطاة هذه المادة بغشاء رقيق، الحوين الأقوى الذي يتجه نحو البويضة ويصطدم بها يتمزق الغشاء، يخرج تحت الغشاء المادة النبيلة تذيب جدار البويضة، تحدث ثقباً فيه، تدخل أصبحت بيضة ملقحة، لذلك قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

[سورة الرعد الآية : ١٩]

أي أصحاب العقول.

الحياء وحسن الخلق رأس العقل بعد الإيمان بالله :

قال تعالى:

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

[سورة يوسف الآية : ٢]

و:

((رأس العقل بعد الإيمان بالله الحياء وحسن الخلق))

[الديلمي عن أنس]

يروى أن أعرابياً دخل على النبي عليه الصلاة والسلام، وبيّن له النبي عليه الصلاة والسلام أوامر الإسلام، فخرج الأعرابي و أعلن إسلامه أمام النبي عليه الصلاة والسلام، قال له قومه: بمَ عرفت أنه رسول الله؟ فقال: ما أمر محمد بأمر فقال العقل: ليته نهى عنه، ولا نهى عنه فقال العقل: ليته أمر به.

مبادئ العقل :

أي توافق العقل مع النقل شيء مذهل، النقل وحي السماء، مشروحاً بكلام النبي عليه الصلاة والسلام، نحن ديننا وحي وشرح، الوحي هو القرآن الكريم، والشرح هو الحديث، وحي السماء بشرح المعصوم هذا النقل، والعقل هذا الجهاز الذي أودعه الله فينا، فيه مبادئ ثلاث، مبدأ السببية، والغائية، وعدم التناقض، فأنت لا تفهم شيئاً حولك إلا له سبب، لو سافرت إلى بلد، وقبل أن تسافر أطفأت كل المصابيح، وعدت من السفر وليس أحد غيرك معه مفاتيح البيت، فنظرت إلى البيت فإذا المصابيح فيه متألقة، لماذا تضطرب؟ لأنك تعلم علم اليقين أنه لا يمكن أن يقع شيء من دون سبب، والمفتاح معك، معنى هذا أن إنساناً دخل للبيت عنوة وسرق، ما معنى عقلك؟ أي عقلك لا يفهم شيئاً بلا سبب.

شيء آخر: ولا يفهم شيئاً من دون غاية، أحياناً تجد ثقباً، لِمَ هذا الثقب؟ أنت امسك جمجمة تجد بقعر المحجر ثقباً، من هذا الثقب يمر العصب البصري، لا تفهم شيئاً بلا سبب، لا تفهم شيئاً بلا غاية، أنت ليس لك علاقة بالشحن إطلاقاً، لكن تمشي في الطريق ترى شاحنة وراءها سلسلة تلامس الأرض، ليس لك علاقة بالشحن أبداً، عندك سؤال لماذا؟ لماذا هذه السلسلة التي تجرها المركبة وتلامس الأرض؟ إلى أن يأتيك إنسان خبير يقول: هناك صواعق قد تحرق المركبة لو أصابتها، فهذه السلسلة التي تلامس الأرض تفرغ هذه الصاعقة إلى الأرض.

أنا مرة وجدت قرصاً زجاجياً وضع في قعر وعاء الحليب، الحليب لا يفور، شيء مريح، اشتريته وضعته في قعر الوعاء، والوعاء ممتلئ بالحليب، عند غلي الحليب على النار الحليب لم يرتفع إلى الأعلى و يفور، المشكلة حلت لكن كيف؟ عندك حاجة عقلية، كيف؟ ما زلت أبحث عن سر هذا القرص، وبعد البحث والدرس وجدت أن هذا القرص مثل قبة صغيرة، مفتوح فتحة، فقاعات الماء تتجمع وتخرج بقوة بالغة، فتثقب الطبقة المتماسكة التي تتكون فوق الحليب ــ القشدة ــ فإذا ثقبتها الحليب لا يفور، عقلك لا يمكن أن يفهم شيئاً بلا سبب، ولا يمكن أن يفهم شيئاً بلا غاية، هذا عقلك، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((قد أفلح من رُزِقَ لبّاً))

[البيهقي في شعب الإيمان عن قرة بن هبيرة]

و:

((رأس العقل بعد الإيمان بالله الحياء وحسن الخلق))

[الديلمي عن أنس]

قال له قومه: بمَ عرفت أنه رسول الله؟ فقال: ما أمر محمد بأمر فقال العقل: ليته نهى عنه، ولا نهى عنه فقال العقل: ليته أمر به.

إذاً هناك توافق العقل مع النقل، النقل القرآن الكريم والسنة، والعقل، هذه المبادئ التي أودعها الله فيك، بقي الفطرة والواقع.

الحق ما جاء به وحي السماء وأقرّه العقل وارتاحت إليه الفطرة وأكدّه الواقع :

أيها الأخوة الكرام، صدقوا أن الحق دائرة تتقاطع فيها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، وخط العقل الصريح، وخط الفطرة السليمة، وخط الواقع الموضوعي، الحق ما جاء به وحي السماء، وقبله العقل، وارتاحت له الفطرة، وأكدّه الواقع، والله هو الحق، هناك علماء كبار ألفوا كتباً كثيرة في حتمية موافقة صريح المعقول مع صحيح المنقول، ابن القيم ألّف كتاباً حول حتمية توافق صحيح المنقول مع صريح المعقول، نقل صحيح، عقل صريح، فطرة سليمة، واقع موضوعي، الفطرة مقياس نفسي أودعه الله فينا، والعقل مقياس علمي أودعه الله فينا، والواقع خلقه، والوحي كلامه، وهذه الأربعة من الله عز وجل، فلذلك اعتقد يقيناً أن الحق ما جاء به وحي السماء، وأقرّ به العقل، وارتاحت إليه الفطرة، وأكدّه الواقع الموضوعي.

الإيمان باليوم الآخر إيمان إخباري أما الإيمان بوجود الله فإيمان عقلي :

هناك لفتة لطيفة أن كل العلماء يرون أن الإيمان باليوم الآخر إيمان إخباري، نقلي، سمعي، أسماء لمسمى واحد، كيف؟ أنت تدخل إلى بيت، في هذا البيت تجد المصباح متألقاً، لمَ المصباح متألق؟ لأنه يوجد بالأشرطة كهرباء، أنت لا ترى الكهرباء لكن ترى تألق المصباح، أنت لا ترى ذات الكهرباء لكن رأيت آثارها، أليس كذلك؟ هذا إيمان عقلي، لا بد أن يكون بالأسلاك كهرباء حتى يتألق المصباح، هذا إيمان عقلي، لكن لو أن هناك خزانة في هذا المسجد ومقفلة، أذكى أذكياء الأرض، أعقل عقلاء الأرض، لا يمكن أن يعرف ما في هذه الخزانة إلا أن يسأل فيجيبه إنسان صادق، دفاتر حسابات فرضاً، هذا اسمه إيمان نقلي، إيمان سمعي، إيمان إخباري، أنت عندك إيمان عقلي وإيمان سمعي، مثلاً اليوم الآخر لا أحد يرى اليوم الآخر، الإيمان باليوم الآخر إيمان سمعي، إخباري، أما الإيمان بوجود الله فإيمان عقلي، هذا الكون يشهد له.

النقطة الدقيقة أنك إذا آمنت بالله إيماناً بعقلك، وآمنت بالقرآن من خلال الإعجاز إيماناً بعقلك، وآمنت بالنبي من خلال القرآن إيماناً بعقلك، الآن أخبرك القرآن أن هناك يوماً آخر، أن هناك جنة ونار، أن هناك صراطاً، الإيمان بهذه الأشياء اسمه إيمان إخباري، إيمان سمعي، فرق كبير بين الإيمان العقلي والإيمان الإخباري، كلاهما إيمان، لكن الإيمان الإخباري لا يوجد معه دليل مادي بل معه دليل نقلي، يكفي أن الله عز وجل أخبرك أن هناك يوماً آخر وانتهى.

الإيمان باليوم الآخر إيمان عقلي حسب رأي ابن القيم :

أيها الأخوة، ابن القيم له رأي آخر، أن الإيمان باليوم الآخر إيمان عقلي، كيف؟ الإيمان العقلي تجد غنياً وفقيراً، ضعيفاً وقوياً، وسيماً ودميماً، ذكياً جداً، متألقاً ومحدوداً، هل من المعقول أن إنساناً معه ملايين مملينة، ويطغى بهذا المال، ويبغي على البشر، ويستعلي عليهم، وإنسان محروم من المال، وتنتهي الدنيا ولا شيء بعد الموت؟ ما ذنب هذا الفقير الذي جعله الله فقيراً؟ ما ذنب هذا الدميم الذي جعله الله دميماً؟ ما ذنب هذا الإنسان الذي عاش ثمان سنوات وإنسان عاش مئة وثلاثين سنة؟ كأن العقل يقول: لا بد من يوم تسوى فيه الحسابات، وجهة نظر ابن القيم أن التفاوت في الحظوظ بين الناس، هناك أقوياء و ضعفاء، مستبدون ومستبد بهم، ظالم ومظلوم، هذا التفاوت لا يعقل أن تنتهي الحياة من دون تسوية حسابات، لذلك ورد في قوله تعالى:

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلّا وَارِدُهَا ﴾

[سورة مريم الآية : ٧١]

أي النار، آية قرآنية،

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلّا وَارِدُهَا ﴾

قال علماء التفسير: ورود النار غير دخولها.

دخلنا إلى معرض للكائنات الحية، في قسم الثعابين وقفت أمام ثعبان، طوله اثنا عشر متراً تقريباً، بيني وبينه ثلاثة سنتمتر، لكن هناك بلور سماكته ستة مليمترات، قال علماء التفسير: ورود النار غير دخولها.

أحياناً ننشئ سجناً راقياً جداً، يأتي ضيف للقطر نأخذه إلى هذا السجن، يدخل معززاً مكرماً، ضيافة، عصير بوظة، هذا سجين؟ لا، هذا ضيف كبير، لذلك قال الله عز وجل:

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلّا وَارِدُهَا ﴾

كل إنسان سوف يرد النار لماذا؟ ليرى عدل الله.

المؤمن يعلم علم اليقين أنه لابدّ من يوم تسوى فيه الحسابات :

هناك طغاة، وغزاة، و سفاحون، وسفاكون للدماء، و مجرمون، يجب أن ترى بعينك عدل الله، أن ترى مصيره، ذلك أن أسماء الله الحسنى كلها محققة في الدنيا إلا اسم العدل محقق جزئياً، لذلك قال تعالى:

﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

[سورة آل عمران الآية : ١٨٥]

قد تجد إنساناً فقيراً، مستقيماً، مؤمناً، ومات فقيراً، وإنساناً غنياً، كافراً، ملحداً، لابدّ من تسوية الحسابات، فالعقل يقول: لابدّ من يوم آخر تسوى فيه الحسابات، أحد العلماء ضرب مثلاً أسوقه لكم، هناك مسرحية، فيها مشاهدون دخلوا لهذا المسرح، رفع الستار، دخل الأبطال، الأول قتل الثاني، أرخي الستار لا أحد يقوم، لأن المسرحية لم تنتهِ، هناك قاتل، الإنسان عنده بالحاسة السادسة شعور أن المسرحية لم تنتهِ، مصير القاتل، أحياناً يكون هناك بداية وعقدة ونهاية، نهاية القصة تنتهي عند حلّ العقدة، الأحداث لها بداية تتأزم تشكل عقدة ثم تحل هذه العقدة. فلذلك المؤمن يعلم علم اليقين أنه لا بد من يوم تسوى فيه الحسابات.

كمال الخلق يدل على كمال التصرف :

عندنا حقيقة مهمة هي أن كمال الخلق يدل على كمال التصرف، هل من المعقول أن تشتري صفقة كومبيوترات من شركة عملاقة، وتدفع الثمن، يضع صاحب الشركة بجيبه المبلغ ويقول لك: شكراً لك، هل أنت بائع بطيخ؟ هناك طلب شراء، على أربع نسخ، و محاسب، و خازن، و دفع بشيك مثلاً، لذلك كمال الخلق يدل على كمال التصرف، كمال الخلق يدل على أن هناك إلهاً عظيماً عادلاً، لا بد من تسوية الحسابات، قال تعالى:

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

[سورة الملك الآية : ١٠]

كلمة نسمع أو نعقل لطيفة، أحياناً الإنسان يأكل طبخة جاهزة، نسمع، أو يطبخها هو أو نعقل، إما أن تأخذ ما في القرآن الكريم وما في السنة جاهزاً، أفكار دقيقة، عقيدة صحيحة، الله موجود، واحد، كامل، نبيه معصوم، السنة شرح القرآن، نحن في الحياة الدنيا، الحياة دنيا وليست عليا، إعداد للآخرة، هذه كلها معلومات دقيقة أخذتها، لكن أنت حينما تتفاعل معها تكون هذه المعلومات قدمت لك إنارة لواقع الحياة.

ورد في بعض الآثار: أول ما خلق الله العقل قال له : أقبل فأقبل، ثم قال له : أدبر فأدبر، ثم قال الله عز وجل: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم عليّ منك، بك آخذ، وبك أعطي، هذا الحديث ورد في إحياء علوم الدين عن أبي أمامة.

علامة رجاحة عقل الإنسان حسن اختياره :

أيها الأخوة، معنى ذلك بموضوع العقل أو موضوع رجاحة عقل النبي عليه الصلاة والسلام، هناك نقطة مهمة جداً أن النبي عليه الصلاة والسلام فيما روي عنه:

((أرجحكم عقلاً أشدُّكم لله حبّاً))

[ورد في الأثر]

علامة رجاحة عقلك حسن اختيارك، أنت اخترت أن تعرف الله، يمكن بدرس سابق قلت: وعاء بلور كبير، بلور أزرق رخيص جداً، وكأس كريستال، وهناك ألماسة في اسطنبول، ثمنها مئة وخمسون مليون دولار، لو أعطيناك الألماسة والكأس والوعاء الكبير، الوعاء الكبير ثمنه يقدر بعشرين ليرة، والكأس ألف ليرة، و الألماسة تقدر بمئة وخمسين مليون دولار، قلنا لك: اختر، فأنت اخترت أكبر قطعة بعشرين ليرة، لو اخترت ألماسة، ثمنها مئة وخمسون مليون دولار، أقسم لكم بالله الذي اختار الدنيا ورضي بها وآثارها كأنه اختار الوعاء، والذي اختار الألماسة فكر بالكون، اتصل بالله، استقام على أمره، خدم عباده، تواضع، طلب العلم، تزوج زوجة صالحة أكرمها، ربى أولاده، أتقن عمله، أحبه الناس، أحب الناس، هذا اختار الألماسة، لذلك مرة ثانية:

((أرجحكم عقلاً أشدُّكم لله حبّاً))

النبي عليه الصلاة والسلام على خلق عظيم هداه عقله إلى الله عز وجل :

شيء آخر: النبي عليه الصلاة والسلام على خلق عظيم، أي عقله هداه إلى الله، والله ألقى في قلبه الكمال، قال أعرابي أمسك النبي عليه الصلاة والسلام من ثوبه وشده حتى أثّر الثوب على صفحة عنق النبي عليه الصلاة والسلام، وقال: يا محمد أعطني من مال الله، فهذا ليس مالك ولا مال أبيك، والنبي قمة المجتمع، كيف تحمّل النبي هؤلاء الأعراب القساة الغلاظ، إنسان آخر بال في المسجد، إنسان يصلي مع النبي عليه الصلاة والسلام عطس فقال له الآخر: يرحمك الله، الأمور الآن واضحة تماماً، كيف أن النبي عليه الصلاة والسلام عاش مع هؤلاء؟ كيف عاش مع هؤلاء الأعراب، غلاظ وأحياناً جفاة.

بطولة الإنسان أن يُفجر الطاقات الكامنة الموجودة لديه :

لذلك :

((أرجحكم عقلاً أشدُّكم لله حبّاً))

إن شاء الله في درس قادم نتابع موضوع عقل النبي عليه الصلاة والسلام، أريد أن أقول كلمة: لا تقل لي أنا لا يوجد عندي ذكاء، هذا كلام مرفوض، نحن بالخمسينات تعلمنا بالجامعة أن الذكاء محدود، لكن الآن الدراسة الحديثة تثبت أن كل إنسان عنده قدرات كامنة، إما أنها فجرت أو لم تفجر، فالبطولة أن تفجر هذه القدرات، مثلاً هذا الذي جاء بأعظم نظرية في الفيزياء " أينشتاين "، التي قلبت مفاهيم الفيزياء، كان يرسب بالفيزياء والكيمياء بالحادي عشر والعاشر، عنده طاقات لم تتفجر، فلما أتيح لها أن تتفجر صار أينشتاين، أريد أن أقول لكل واحد منكم: إياك ثم إياك أن تقول: ليس عندي إمكانيات، هذه نظرية باطلة، هناك طاقات كامنة، إما أن تفجر وإما ألا تفجر، فأنت بطولتك أن تفجر هذه الطاقات، بطولتك أن تسعى لتفجير طاقات أولادك، أما بيت كله مشكلات، كله خصومات، ضرب بقسوة، هذا البيت لا يفجر طاقات الأبناء إطلاقاً صار هناك قمع، أما لو أنت في البيت إنسان حليم، قائد، قيادتك ناجحة، تفجر طاقات أولادك، أنا لا أسمح لإنسان أن يقول لي: أنا لا أملك أية إمكانات، لا يوجد عندي إمكانات عقلية، لا، يوجد عندك، لكن هذه الإمكانات لم تفجر.

الموضوع العلمي :

التفكر أفضل طريق لمعرفة الله :

ننتقل أيها الأخوة إلى موضوع متعلق بخلق الإنسان، لما الله عز وجل قال:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾

[سورة العلق الآيات : ١-٢]

الذي خلق الكون، خلق المجرات، خلق المذنبات، خلق الشمس والقمر، خلق الليل والنهار، خلق الصحارى، خلق الجبال، خلق البحار، خلق البحيرات، الأنهار، الفواكه، الثمار، النباتات، الحيوانات، الطيور، الأسماك، كله خلقه الله عز وجل، السؤال هذا الخلق الذي أمامك ألا يقتضي أن تفكر فيمن خلقهم؟ أقول لكم بشكل دقيق: ما في طريق لمعرفة الله عز وجل إلا أن تتفكر في خلقه، والدليل:

﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾

[سورة الجاثية الآية :٦]

إذاً عود نفسك قبل أن تشرب الماء، هذا الماء من النبع، النبع من الأمطار، الأمطار مياه عذبة، الأمطار جاءت من غيوم، الغيوم من بخار الماء الذي جاءت الشمس فبخرته، أنت حينما تؤمن أن هذا الكون له مكون، أن هذا التسيير له مسير، أن هذه الحكمة وراءها حكيم، أي كأن الكون معرض لأسماء الله الحسنى، كأن الكون مظهر لأسماء الله الحسنى، أنا أقول لكم قوله تعالى:

﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾

[سورة الجاثية الآية :٦]

فلذلك أتمنى أن يكون التفكر جزءاً من حياتنا، أمسك رغيف خبز، هذا مخبوز وقبل الخبز كان معجوناً، ومع العجين هناك خميرة، قبل العجن كان مطحوناً، وقبل الطحن كان حبوباً، وقبل الحبوب كان سنابل، القمح خمسة وأربعون ألف نوع، هناك قمح للجبال، للسهول، للصحارى، للوهاد، منطقة باردة، منطقة حارة، فلذلك القمح غذاء أساسي، هذه السنبلة غذاء أساسي لنا، الآن سوق هذه السنبلة أي التبن غذاء كامل أساسي للحيوان، فسوق السنبلة طعام لكم ولأنعامكم.

والحمد لله رب العالمين

السيرة – الشمائل المحمدية ٢٠١٠ – الدرس (١٣-) : أرجحية عقل النبي عليه الصلاة والسلام

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠١٠-٠٧-٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

كل إنسان لو أراد شيئاً عنده الإمكانات الكافية لتحقيق هذا الشيء :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثالث عشر من دروس شمائل النبي عليه الصلاة والسلام، ولازلنا في أرجحية عقل النبي عليه الصلاة والسلام.

أيها الأخوة الكرام، بادئ ذي بدء المؤمن كيس فطن حذر، وقد يقول أحدكم: هل هناك توزيع للذكاء بين عباد الله؟ النظرية القديمة هناك إنسان ذكي، و إنسان أقل ذكاء، و إنسان محدود، لكن النظرية الحديثة تؤكد أن في الإنسان طاقات مخبوءة، إما أن تفكر، أو ألا تفعل، فكل إنسان لو أراد شيئاً عنده الإمكانات الكافية لتحقيق هذا الشيء، والدليل:

﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا* كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾

[سورة الإسراء: ١٨-٢٠]

أي لو أردت شيئاً أعطاك الله إمكاناته، لو أردت شيئاً أعطاك الله مقوماته، لو أردت شيئاً أعطاك الله أسبابه، فلذلك ألغي موضوع الذكاء وعدم الذكاء وبقي موضوع من كان صادقاً في طلب شيء أعطاه الله مقوماته.

الحوار المنطقي والهادئ واللطيف طريق الإنسان لدخول الآخرين في الدين :

يقال إن حصين والد عمران بن حصين كان يعبد سبعة أصنام في الجاهلية، ويرى أنها آلهة، وكان مُعظماً في قريش، فجاؤوا إليه وقالوا له: كلم لنا هذا الرجل ــ يقصدون النبي عليه الصلاة والسلام ــ فإنه يذكر آلهتك، ويسبها، وجاؤوا معه حتى جلسوا قريباً من باب النبي عليه الصلاة والسلام، دققوا في رجاحة عقل النبي فقال النبي عليه الصلاة والسلام: أوسعوا للشيخ، أي الغلظة والاستعلاء ليست من صفات المؤمن، يعبد سبعة أصنام في الأرض فلما جاء النبي عليه الصلاة والسلام قال: أوسعوا للشيخ، فقال حصين للنبي بضمير المفرد: ما هذا الذي بلغنا عنك أنك تشتم آلهتنا؟ فقال النبي عليه الصلاة والسلام: يا حصين كم تعبد من إلهٍ ؟، قال: سبعاً في الأرض وواحداً في السماء، أي ثمانية، فقال عليه الصلاة والسلام: فإذا مسّك الضر من تدعو؟ فقال

حصين: أدعو الذي في السماء، قال: فإذا هلك المال من تدعو؟ قال: أدعو الذي في السماء، قال عليه الصلاة والسلام: فيستجيب لك وحده وتشركهم معه؟ في الشدة تدعو الذي في السماء يستجيب لك الذي في السماء وتشركهم معه، هذا الكلام معقول؟ أرضيته في الشكر وتجعلهم آلهة معه في الأرض؟ أرضيته في الشكر أم تخاف أن يغلب عليك؟ فقال حصين: لا واحدة من هاتين، فقال عليه الصلاة والسلام: يا حصين أسلم تسلم، فقال: إني لي قوماً وعشيرةً، لو قلت كما تطلب مني لفقدت مكانتي.

طبعاً هذه مشكلة، الأديان الأخرى صدقت بالنبي الكريم لكنها لم تعترف به خوفاً على مركزها، وعلى مكتسباتها، فقال ماذا أفعل بحالي؟ فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: قل اللهمَّ أستهديك لأرشد أمري، وزدني علماً ينفعني، فقالها حصين، فلم يقم حتى أسلم.

انظر إلى الحوار المنطقي، والهادئ، واللطيف، وتكريمه، أوسعوا للشيخ، عمران ابنه، فقام إليه عمران ابنه فقبّل رأسه، ويديه، ورجليه أمام النبي عليه الصلاة والسلام، فلما رأى النبي هذا بكى، وقال: بكيت من صنيع عمران، دخل حصين أبوه وهو كافر فلم يقم إليه عمران، ولم يلتفت ناحيته، فلما أسلم قضى حقّه فدخلني من ذلك الرقة.

عندما دخل حصين على النبي كان ابنه موجوداً ما قام له، ولم يلتفت له، لأنه كافر، فلما أسلم قام فقبّل رأسه، ويديه، ورجليه، هذه النقلة الكبيرة.

شمائل النبي عليه الصلاة والسلام منهج تفصيلي لنا :

أيها الأخوة الكرام، لماذا نتحدث عن شمائل النبي عليه الصلاة والسلام؟ لأنها منهج تفصيلي، يجب أن تكرم من كان في قومه كريماً، أوسعوا للشيخ، يجب أن تحاور حواراً منطقياً، يجب ألا تستعلي عمن تحاور، يجب أن تكرم من تحاور، بالحوار الهادئ، المنطقي، الواضح، الذي فيه أسئلة وتعليقات، هذا حصين أسلم، بالمناسبة نحن لا يوجد عندنا عداوة ثابتة، أنت لا تكره الكافر تكره عمله فقط، فإذا أسلم الكافر صار أقرب الناس إليك، والدليل أن أحد الأشخاص اسمه عمير بن وهب التقى مع صفوان بن أمية خارج مكة، فقال له عمير: والله يا صفوان لولا ديون لزمتني ما أطيق سدادها، ولولا أولاد أخشى عليهم العنت من بعدي لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه، فصفوان استغلها استغلالاً فقال: أما ديونك فهي عليّ بلغت ما بلغت، وأما أولادك فهم أولادي ما امتد بهم العمر، فامضِ لما أردت، عندئذ سقى سيفه سماً، ووضعه على عاتقه، وتوجه إلى المدينة، ليقتل محمداً، لما وصلها رآه عمر ــ رضي الله عنه ــ وقال: هذا عدو الله عمير جاء يريد شراً، قيده بحمالة سيفه، وساقه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، أما النبي فقال: يا عمر، أطلقه، ادنُ مني يا عمير، قال له: سلم علينا، قال له: عمت صباحاً يا محمد بكل غلظة، قال : ما الذي جاء بك يا عمير ؟ قال: جئت أفك أسر ابني، قال له: وهذه السيف التي على عاتقك؟ قال:

قاتلها الله من سيوف وهل نفعتنا يوم بدر؟ قال له: ألم تقل لصفوان لولا ديون لزمتني ما أطيق سدادها، ولولا أولاد أخشى عليهم العنت من بعدي لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه؟ فوقف عمير وقال: أشهد أنك رسول الله لأن هذا الذي جرى بيني وبين صفوان لا يعلمه أحد إلا الله، وأنت رسوله، وأسلم.

الشاهد هنا، يقول سيدنا عمر: دخل عمير على رسول الله والخنزير أحب إليّ منه، وخرج من عنده وهو أحبّ إليّ من بعض أولادي، بالإسلام لا يوجد عداوة ثابتة هذا الذي تكره، تكره عمله، تكره كفره، تكره لؤمه، تكره معصيته، فإذا رجع إلى الله فهو أخوك.

الحوار الهادئ والنفس الهادئة والكلام المنطقي من شمائل النبي عليه الصلاة والسلام :

شاب غير منضبط التقى النبي عليه الصلاة والسلام فقال له: ائذن لي بالزنا، تصوروا إنساناً يقابل وزير داخلية ويقول له: اسمح لي بالقتل، هذا فيه تحدٍّ، الصحابة قاموا إليه فقال عليه الصلاة والسلام: لا، قال: يا عبد الله أترضى أن يزني الناس بأمك؟ احمر لون وجهه، فقال: لا. قال: كذلك الناس يكرهون هذا، قال: أترضى أن يزني الناس بأختك؟ بابنتك؟ بعمّتك؟ بخالتك؟ فقال: لا، قال: دخلت على رسول الله وما من شيءٍ أحب إلي من الزنا، وخرجت من عنده وما شيء أبغض إليِّ منه.

معنى ذلك أن الحوار الهادئ، والنفس الهادئة، والكلام المنطقي، هذا من شمائل النبي عليه الصلاة والسلام، لا تكن عنيفاً، حاور، ناقش، أدلي بالبرهان، أدلي بالبينة.

أيها الأخوة، من رجاحة عقل النبي عليه الصلاة والسلام، اختلفت القبائل على من يمسك الحجر الأسود عند بناء الكعبة، وكادت أن تنشب فتنة كبيرة، فماذا فعل النبي عليه الصلاة والسلام ؟ جاء برداء ووضع الحجر بيده الشريفة في الرداء، وأمر كل رأس قبيلة أن يحمل طرفاً من الرداء، هم جميعاً حملوا الحجر، فلما وصلوا إلى مكانه أمسكه النبي بيده ووضعه في مكانه.

الحكمة أكبر عطاء من الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام، لأن تؤتى الحكمة، لعل الحكمة أكبر عطاء من الله:

﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً ﴾

[سورة البقرة: ٢٦٩]

بالحكمة تسعد بزوجة من الدرجة الخامسة، ومن دون حكمة تشقى بزوجة من الدرجة الأولى، أنت بالحكمة تتدبر المال القليل، ومن دون حكمة تبدد المال الكثير، أنت بالحكمة تجعل العدو صديقاً، من دون حكمة تجعل الصديق عدواً، الحكمة شيء ثمين هذه تؤتى بالصلاة، لقوله تعالى:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ ﴾

[سورة العنكبوت: ٤٥]

ذكر الله لك وأنت في الصلاة أكبر من ذكرك له، إنك إن ذكرته أديت واجب العبودية، لكنه إذا ذكرك منحك الحكمة، أنت ضيف في بيت الله لا يوجد ضيافة أبداً، لكن أنت إذا أتيت بيت الله يمنحك الله الحكمة، يمنحك الحلم، يمنحك الرضا، يمنحك التوفيق، يمنحك الثبات، يمنحك السكينة، يمنحك السعادة، هذه عطاءات لا تقدر بثمن، والإنسان أحياناً إذا كان بعيداً عن الله كما يقال يخرب بيته بيده، يرتكب حماقة ما بعدها حماقة، فإذا كنت مع الله آتاك الحكمة، آتاك المنطق، آتاك السكينة، آتاك الوقار، آتاك الرضا، آتاك الحلم.

النبي عليه الصلاة والسلام راجح العقل وعلّم أصحابه رجاحة العقل :

من رجاحة عقل النبي عليه الصلاة والسلام أنه أمر بعض أصحابه أنْ يتعلّموا السريانيّة، لأنه من تكلم لغة قوم أَمِن مكرهم.

و روى الإمام أحمد وغيره عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قَالَ:

((لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ أَصَبْنَا مِنْ ثِمَارِهَا فَاجْتَوَيْنَاهَا، وَأَصَابَنَا بِهَا وَعْكٌ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَخَبَّرُ عَنْ بَدْرٍ، فَلَمَّا بَلَغَنَا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَدْ أَقْبَلُوا سَارَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى بَدْرٍ، وَبَدْرٌ بِئْرٌ، فَسَبَقَنَا الْمُشْرِكُونَ إِلَيْهَا، فَوَجَدْنَا فِيهَا رَجُلَيْنِ مِنْهُمْ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ وَمَوْلًى لِعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، فَأَمَّا الْقُرَشِيُّ فَانْفَلَتَ، وَأَمَّا مَوْلَى عُقْبَةَ فَأَخَذْنَاهُ فَجَعَلْنَا نَقُولُ لَهُ: كَمْ الْقَوْمُ؟ فَيَقُولُ هُمْ وَاللَّهِ كَثِيرٌ عَدَدُهُمْ، شَدِيدٌ بَأْسُهُمْ، فَجَعَلَ الْمُسْلِمُونَ إِذْ قَالَ ذَلِكَ ضَرَبُوهُ، حَتَّى انْتَهَوْا بِهِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ: كَمْ الْقَوْمُ؟ قَالَ هُمْ وَاللَّهِ كَثِيرٌ عَدَدُهُمْ، شَدِيدٌ بَأْسُهُمْ، فَجَهَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُخْبِرَهُ كَمْ هُمْ ، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَهُ كَمْ يَنْحَرُونَ مِنْ الْجُزُرِ؟ فَقَالَ: عَشْرًا كُلَّ يَوْمٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقَوْمُ أَلْفٌ كُلُّ جَزُورٍ لِمِائَةٍ))

[أحمد وغيره عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

تقصى المعلومات قبل أن يواجه، الآن بعلم النفس أحياناً موضوع واحد نسأله بعشرة أساليب، فإذا أحب إنسان أن يكذبَ يكذب بأول أسلوب، وبالثاني، و مع ذلك لابدّ من أن يتكلم الحقيقة بسؤال حول الموضوع نفسه لكن بصيغة ثالثة، فإذا تكلم ببعض الأجوبة بخلاف الأولى تبين الحقيقة، فالنبي سأله:

((كَمْ يَنْحَرُونَ مِنْ الْجُزُرِ فَقَالَ عَشْرًا كُلَّ يَوْمٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقَوْمُ أَلْفٌ كُلُّ جَزُورٍ لِمِائَةٍ))

هم بالحقيقة كانوا ألفاً، النبي عليه الصلاة والسلام في بدر عرف أن المؤمنين كانوا ألفاً، وكانت الرواحل ثلاثمئة، فقال: كل ثلاثة على راحلة، وأنا وعلي وأبو لبابة على راحلة، سوى نفسه مع أقل جندي، ركب الناقة فلما جاء دوره في المشي توسلا صاحباه أن يبقى راكباً فقال: ما أنتما بأقوى مني على السير ولا أنا بأغنى منكما عن الأجر.

كان النبي عليه الصلاة والسلام راجح العقل، وعلّم أصحابه رجاحة العقل، بمعركة الخندق هكذا أمر النبي عليه الصلاة والسلام، أمر سيدنا حذيفة بن اليمان أن يذهب إلى معسكر الأعداء في معركة الخندق، هناك تضحية كبيرة قد يقتل، دخل، وجلس، وأمره أن لا يحدث شيئاً حتى يأتيه، وفي رواية: اذهب وائتِ بخبر القوم ولا تحدث شيئاً حتى تأتيني.

تصور مجنداً ينتقل إلى معسكر العدو، قال: شعر أبو سفيان أن هناك أشخاصاً غرباء يستمعون، فقال: كلٌ منكم يتفقّد صاحبه، فكان سريع البديهة ــ سيدنا حذيفة ــ أمسك بيد جاره وقال له: من أنت؟ طبعاً هذا ذكاء ورجاحة عقل.

الملخص المؤمن كيس فطن حذر، إنسان ضعيف في اللغة قرأها: المؤمن كيس قطن، قال له طالب: ما كيس قطن؟ قال له: يا بني قلبه أبيض ولين بالمعاملة.

قصة نعيم بن مسعود مع النبي صلى الله عليه وسلم :

الآن دققوا، نعيم بن مسعود زعيم قبيلة غطفان، وفي الحقيقة ما اجتمع عشرة آلاف مقاتل في الجزيرة إلا في الخندق، جاؤوا ليستأصلوا المسلمين، بالتعبير المعاصر حرب إبادة.
نعيم بن مسعود زعيم قبيلة غطفان، وهو في خيمته في الليل ساوى حواراً ذاتياً، هذا يسمى بالمسرحيات مونولوج، يخاطب نفسه، قال: يا نعيم ما الذي جاء بك إلى هنا؟ جئت لتحارب هذا الرجل الصالح؟ معروف أن النبي عليه الصلاة والسلام كان أميناً صادقاً، ماذا فعل هذا الرجل يا نعيم؟ هل سفك دماً، هل نهب مالاً؟ قال: لا ، هل انتهك عرضاً؟ قال: لا، أين عقلك؟ وقف وتوجه إلى معسكر النبي عليه الصلاة والسلام، دخل على النبي فلما رآه النبي دهش، قال: نعيم؟ قال: نعيم، قال له: ما الذي جاء بك إلينا؟ قال: إني أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: إنما أنت فينا رجلٌ واحد.
عشرة آلاف جاؤوا ليبيدوا النبي عليه الصلاة والسلام، حتى من كان مع النبي عليه الصلاة والسلام قال : أيعدنا صاحبكم أن تُفْتَح علينا بلاد قيصر وكسرى وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته؟ قال تعالى:

﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾

[سورة الأحزاب: ١١-١٢]

﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا ﴾

[سورة الأحزاب: ٢٣]

موقف عصيب،

﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾

فالنبي نظر فقال له: إنما أنت فينا رجل واحد فخَذِّل عنا إن استطعت، إن الحرب خدعة، فاذهب فشتِّت جموع العدو، وألق بينهم بدهائك، تصور معركة إبادة، معركة استئصال، معركة حاسمة، معركة مصيرية، إنسان يتمكن أن ينهي هذه المعركة لصالح النبي عليه الصلاة والسلام، كيف؟

أثر إسلام نعيم بن مسعود في قلب موازين معركة الخندق :

خرج سيدنا نعيم بن مسعود زعيم قبيلة غطفان حتى أتى بني قريظة وهم طائفة اليهود، وكان لهم نديماً من قبل، هم ما عرفوا أنه مسلم، قال: قد عرفتم ودي إياكم وخاصَّةً ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت لست عندنا بمتّهم، فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم ــ أي ليسوا مثلكم ــ البلد بلدكم، به أموالكم، وأبناؤكم، ونساؤكم، ولا تقدرون أن تتحوّلوا منه إلى غيره، وإنهم جاؤوا لحرب محمدٍ وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فإن رأوا فرصة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وتركوكم لمحمد فينتقم منكم، ولا طاقة لكم بمحمد، وهذا كلام منطقي.

قريش وغطفان إذا انتصروا انتصروا، و إن لم ينتصروا عادوا إلى بلدهم وتركوكم لمحمد ولا قِبَل لكم به، فأنصحكم ألا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم.

ثم أتى قريشاً وقال لأبي سفيان ومن معه: قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً، وإنه قد بلغي أمراً رأيته حقاً عليَّ أن أبلغكموه، نصحاً لكم فاكتموه عني، قالوا: نفعل، قال نعيم: إن اليهود ندموا على ما صنعوا، وأرسلوا إلى محمدٍ إنا قد ندمنا على ما فعلنا، أيرضيك أن نأخذ من أشراف قريش وغطفان رجالاً تضرب أعناقهم كرهائن، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم محمد أن نعم، قال نعيم: فإن بعثت إليكم اليهود يلتمسون إليكم الرهائن فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً.

ما هذا الذكاء؟! اليهود متفقة مع قريش وغطفان على استئصال المسلمين، ثم نعيم أتى غطفان وقال: إنكم أصلي وعشيرتي، وأحب الناس إليّ، ولا أراكم تتهمونني، أي بل أنا مصدقٌ عندكم،

فقالوا: صدقت وما أنت عندنا بمتهم، فقال: فاكتموا عني، قالوا: نفعل. فقال لهم مثلما قال لقريش.

وكان من صنع الله أن أبا سفيان ورؤوس غطفان أرسلوا إلى اليهود من بني قريظة في نفرٍ من القبيلتين: إنا لسنا بدار مُقام، وقد هلك الخف والحافر، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً، فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم السبت لا نعمل فيه شيئاً، وكان قد أحدث فيه ـــ أي في السبت ـــ بعضنا حدثاً فأصابه ما لم يخفَ عليكم، ولسنا بمقاتلين معكم حتى تعطونا من رجالكم رجالاً يكونون بأيدينا ثقةً، حتى نناجز محمداً، فإنا نخشى إن اشتدّ عليكم القتال أن ترجعوا إلى بلادكم، وتتركونا ومحمداً.

فهذا إنسان واحد بذكاء بارع أوقع بين الفريقين، وجعل بعضهم يتهم بعضاً، وانشقت صفوفهم، وتفرقوا، وهذا الذي فعله أيضاً مع بني قريظة، إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً، فأبوا عليهم وخذّل الله بينهم، وبعث الله عليهم الرياح في ليالٍ شديدة البرد، فأكفأت قدورهم، وطرحت أبنيتهم.

والله جميل أن يكون المؤمن ذكياً، المؤمن كيس فطن حذر، هذا من شمائل النبي، من أرجحية عقل النبي عليه الصلاة والسلام.

الموضوع العلمي :

الحمام الزاجل :

ننتقل إلى الموضوع العلمي، أيها الأخوة الكرام، قال: الحمام الزاجل أول وكالة أنباء في التاريخ، إن حمام الرسائل الحمام الزاجل يزيد عن خمسمئة نوع، هذا الحمام يمتاز بحدة الذكاء، والقدرة الفائقة على الطيران، والغريزة القوية، التي يهتدي بها إلى هدفه وموطنه، وهو حيوان مستأنس وأليف، قال تعالى :

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ ﴾

[سورة يس: ٤٢]

الحمام الزاجل من أكبر الآيات الدالة على عظمة الله عز وجل :

من ذلل هذا الطائر؟ من جعله حاد الذكاء؟ من أعطاه قدرة فائقة على الطيران؟ من أعطاه غريزة قوية يهتدي بها إلى هدفه؟ إن الحمام الزاجل يقطع مسافة ألف كيلو متر من دون توقف في طيران مستمر، يقطعها بسرعة كيلو متر بالدقيقة، أي يقطع ستين كيلو متراً بالساعة، ويعطي هذا الحمام الزاجل في العام تسعة أزواج من الزغاليل، هل هناك أحد منا اشترى سيارة وجد بعد سنة

أمامها سيارة صغيرة؟ ويعينك على نقل رسائلك عبر الآفاق، ويهتدي إلى إيصالها بسرعة فائقة بالقياس إلى ذلك الزمان.

لذلك نور الدين الشهيد استخدم الحمام بين دمشق والقاهرة، وكان ينقش اسم السلطان على منقار هذا الحمام، وكان له ورق خاص يحمله لينقل به الرسائل، هذا الورق وزنه خفيف، وكان يستخدم هذا السلطان ألفين من الحمام الزاجل لنقل أوامره إلى عماله في الأمصار.

الله تعالى يتولى بذاته العلية هداية هذا الطائر إلى مستقره :

هناك لغز كبير لهذا الحمام يحير الباحثين، العلماء يتساءلون كيف يستدل الحمام على طريقه الطويل في السفر؟ طبعاً الحمام الزاجل كما قلت قبل قليل يعد أول وكالة أنباء في التاريخ، كان يستخدم عند الشعوب كالإغريق، واليونان، والرومان وعند العرب، وفي كل العصور، فقد كان يستخدم لنقل الرسائل، وإيصال الأنباء، وقد استخدمته بعض الدول الغربية كهولندا لإبلاغ الأوامر إلى سومطرة بجنوب شرق آسيا، تصور هولندا في غرب إفريقيا تستخدم الحمام الزاجل لنقل أوامرها إلى سومطرة، المسافة بينهما سبعة عشر ألف كيلو متر، هناك طائر يطير سبعة عشر ألف كيلو متر إلى هدفه معه رسالة، الطيار عنده إحداثيات، عنده أقمار صناعية، عنده اتصالات دائمة تحدد له موقعه، لا يوجد طيار في الأرض يتمكن أن يقود طائرته بعيونه، بالإحداثيات، بالاتصالات، بكل ما يعينه على ما يقود الطائرة.

لذلك العلماء احتاروا يا ترى يحفظون التضاريس؟ ليس كذلك، يتحركون وفق مغناطيس معين؟ ليسوا كذلك، لا يوجد نظرية طرحت وكانت مقنعة، إلا أن الله عز وجل يمسك بالطير و يقوده إلى أهدافه، الآية:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ ﴾

[سورة الملك: ١٩]

طائر يذهب من هولندا إلى سومطرة ؟ هناك بحار، هناك جبال، هناك صحارى، هناك سهول، معه رسالة وتصل هذه الرسالة؟

﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾

[سورة لقمان: ١١]

والحمد لله رب العالمين

السيرة – الشمائل المحمدية ٢٠١٠ – الدرس (١٤-) : سعة علمه.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠١١-٠١-٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

سعة علم النبي صلى الله عليه وسلم :

أيها الأخوة الكرام، مازلنا في موضوعات متعلقة بشمائل النبي عليه الصلاة والسلام، والدرس اليوم هو الدرس الرابع عشر، موضوعه سعة علمه صلى الله عليه وسلم، كان النبي عليه الصلاة والسلام واسع العلم، عظيم الفهم، أفاض الله تعالى على يده العلوم النافعة الكثيرة، والمعارف العالية الوفيرة، والله عز وجل يقول:

﴿ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾

[سورة النساء: ١١٣]

اسمحوا لي أن أعلق على كلمة عظيم، إذا قال لك طفل صغير: معي مبلغ عظيم عقب عيد الأضحى، أنت تقدره بألف ليرة، لو قال مسؤول كبير بدولة عظمى: أعددنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً، كلمة عظيم من مسؤول تقدر بمئتي مليار، فإذا قال خالق الأرض والسماوات :

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾

[سورة النساء: ١١٣]

بحسب هذه الآية هل هناك من عطاء إلهي يفوق أن تعرفه؟

الكرامة الحقيقية أن تعرف الله و تستقيم على أمره :

لذلك: ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء:

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾

[سورة النساء: ١١٣]

فإذا سهل الله عز وجل لإنسان طلب العلم، سهل له أن يعرف الله، أن يستقيم على أمره، أن يتقرب إليه، أن ينضبط بمنهجه، هذا عطاء وأي عطاء، إلا أن الدنيا الأوراق فيها مختلطة، كيف؟ الناس كلهم عندهم بيوت، ويأكلون، ويشربون، ويستمتعون، كفصل في مدرسة، فيه خمسون طالباً، هناك متفوق، و كسول، ومتوسط، متى يفرزون؟ آخر العام، أما أثناء العام الدراسي فكلهم

مثل بعض، طلاب يلبسون ثياباً مدرسية، معهم محفظة فيها كتبهم، متى يفرز هؤلاء الطلاب إلى متفوقين أو مقصرين؟ بعد الامتحان:

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾

[سورة النساء: ١١٣]

على الإنسان ألا يروي الكرامات لأنها تضعضع ثقة الناس بالدين :

نسمع من حين لآخر عن الكرامات، والكرامات الأولى ألا ترويها، لأنك إذا رويتها ضعضعت ثقة الناس بالدين، إلا أن الكرامة الذي وردت في القرآن الكريم مدعمة بوحي السماء، السيدة مريم ليست نبية لكنها أنجبت مولوداً من دون زواج، هذه كرامة لكن هذه الكرامة وردت بالقرآن الكريم، فأنا أنصح أخوتي طلاب العلم أن يقتصروا في رواية الكرامات وخوارق العادات على ما جاء في القرآن الكريم فقط، وما سوى ذلك تبعد الناس عن الدين، إنسان يحمل شهادة ثانوية، قلت له: إن فلاناً تخطى المسافات في دقائق، يقول لك: هذا خلط، هذه خرافات، هذه خزعبلات، أباطيل، فأنا أنصح ألا تروي كرامة إلا إذا وردت في كتاب الله لأنها موثقة، وإذا رويتها في غير كتاب الله ولم تكن في كتاب الله فأنت تغامر، قد تكون هذه الكرامة سبباً لانصراف المستمع عن الدين أصلاً، فأنا من منهجي في الدعوة إلى الله أن الكرامة لا أرويها ولا أنكرها، ما كان لي أن أنكرها لأنها في الكتاب والسنة، لكن لا أروي من الكرامات إلا ما كان في الكتاب والسنة فقط، لذلك قالوا: الولي يستحي بكرامته كما تستحي المرأة بدم حيضها، الولي لو أن الله سبحانه وتعالى أكرمه بكرامة لا يرويها، الأنبياء معجزاتهم أمروا أن يتحدوا الكفار بها، أما الأولياء فكراماتهم ينبغي ألا يَتَحدّوا أحداً بها، لأن الناس عندئذ لا يصدقونه، أفضل نصيحة في دعوتك إلى الله ابتعد عن كل حديث عن كرامة، وأفضل كرامة أن تخفيها لا أن تظهرها.

أعظم كرامة للإنسان هي كرامة العلم :

لكن أجمل كلام أقوله لكم الآن أعظم كرامة على الإطلاق كرامة ليس فيها خرق للعادات، إنها العلم:

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾

[سورة النساء: ١١٣]

كرامة العلم ليس فيها خرق للعادات، وهي أعظم الكرامات، وقد قيل: ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلمه، بل إن هذه الكرامة أو هذه القيمة جعلها الله أساساً للترجيح بين عباده، فقال تعالى:

﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[سورة الزمر:٩]

وقال تعالى:

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾

[سورة المجادلة: ١١]

وما استزاد النبي عليه الصلاة والسلام من شيء على الإطلاق إلا العلم بأمر من الله عز وجل، والآية:

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

[سورة طه: ١١٤]

هذه الآية محفورة بالحجر على بناء جامعة دمشق:

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

[سورة طه: ١١٤]

من عرف الله و استقام على أمره فقد حقق النعمة المطلقة :

ويكفي أنك إذا قرأت الفاتحة في الصلاة ووصلت إلى قوله تعالى:

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ*صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

[سورة الفاتحة: ٦-٧]

النعمة الحقيقية العظمى أن تكون مستقيماً على أمر الله، أما الذين غضب الله عليهم فهم الذين عرفوا وانحرفوا، وأما الضالون فهم الذي ما عرفوا وانحرفوا، كلاهما منحرف، لكن الأول عرف وانحرف والثاني ما عرف وانحرف، والذي أنعم الله عليه يتكرم عليه بالاستقامة:

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ*صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

[سورة الفاتحة: ٦-٧]

لذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللَّهِ أَنَا))

[البخاري عن عائشة]

أيّ معرفة لا علاقة لها بالله عز وجل ليست نجاحاً :

لذلك حينما تتوهم نجاحاً لا علاقة له بمعرفة الله فأنت مخطئ وأنت واهم، من هنا إذا رجع العبد بعد أن عرف الله واستقام على أمره، نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله، والآية الكريمة:

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾

[سورة الكهف:٤٦]

قال بعض علماء التفسير: هي سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أي إذا سبحته، وحمدته، ووحدته، وكبرته، قد عرفته، وإن عرفته هذه المعرفة خير لك من الدنيا وما فيها، لو جمعت آلاف الملايين ماذا بعد أن جمعتها؟ هناك موت، ثم ماذا؟ هناك موت، لو بلغت أعلى مقام في الأرض ماذا بعد هذا المقام؟ الموت، لو تألقت أعلى تألقاً ماذا بعد هذا التألق؟ الموت، الموت ينهي كل شيء، ينهي قوة القوي، وضعف الضعيف، وغنى الغني، وفقر الفقير، وصحة الصحيح، ومرض المريض، وذكاء الذكي، ومحدودية المحدود، الموت ينهي كل شيء.

العلم ما عُمل به :

ورد في الصحيحين، واللفظ لمسلم:

((سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَحْفَوْهُ الْمَسْأَلَةَ فَغَضِبَ فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَقَالَ لَا تَسْأَلُونِي الْيَوْمَ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا بَيَّنْتُهُ لَكُمْ، وفي روايةٍ :" إلاّ أَخْبَرْتُكُمْ بِهِ مَا دُمْتُ فِي مَقَامِي هَذَا "، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَإِذَا كُلُّ رَجُلٍ لَافٌّ رَأْسَهُ فِي ثَوْبِهِ يَبْكِي...))

[مسلم عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

الصحابة أدركوا أن النبي غضب، طبعاً كأن النبي عليه الصلاة والسلام ما أراد أن يكون العلم هدفاً، أراد أن يكون وسيلة، لذلك العلم ما عُمل به، العلم الذي حضك الله عليه، ودعاك إليه، وأثنى عليك به، هو العلم الذي تعمل به، لذلك قال تعالى:

﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾

[سورة التحريم: ٤]

كلكم تصغون إليّ إصغاء كاملاً واضحاً الآن، هذا دليل اهتمام، دليل محبة، دليل تقدير، لكن الإصغاء الحقيقي لا أن تعطيني أذنك بالدرس، الإصغاء الحقيقي حينما ينتهي هذا الدرس وتذهب إلى البيت وتطبق ما جاء فيه، الآية واضحة؟

﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾

[سورة التحريم: ٤]

علامة الإصغاء العمل بالعلم، العلم ما عُمل به، فإن لم يعمل به كان الجهل أولى، للتقريب، إنسان على وشك الموت عطشاً ولم يجد ماءً، وإنسان آخر عرف مكان النبع وهو على وشك الموت عطشاً فلم يذهب إلى النبع، والاثنان ماتا، أيهما أشدهم حسرة بعد الموت؟ الذي عرف النبع ولم يذهب إليه.

العلم بالإسلام ليس هدفاً لذاته إنما هو وسيلة:

أيها الأخوة الكرام، العلم بالإسلام ليس هدفاً لذاته، إنما هو وسيلة، فإذا جعلت العلم وحده هدفاً، وأكثرت المسألة، وغرقت في التفاصيل، وفي الجزئيات، وجعلت همك وحده أن تشحذ عقلك بالمعارف، عندئذ نقول لك: العلم ما عُمل به، فإن لم يعمل به كان الجهل أولى، الصحابة الكرام رضي الله عنهم يقرؤون الآيات العشر حتى يطبّقوها.

ابن سيدنا عمر أراد أن يمتحن راعياً، فقال له: بعني هذه الشاة وخذ ثمنها؟ قال: ليست لي، قال: قل لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب، قال: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله؟!.

ليس لها حل، أعرابي جاء النبي عليه الصلاة والسلام، فقال: يا رسول الله عظني ولا تطل –أي عظني واختصر– فتلا عليه النبي عليه الصلاة والسلام قول الله تعالى:

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾

[سورة الزلزلة: ٧-٨]

آية واحدة، آية ثانية:

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾

[سورة النساء:١]

ألا تكفي هذه الآية؟ والله هناك آيات لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكفت:

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

[سورة الجاثية: ٢١]

النبي عليه الصلاة والسلام معصوم بمفرده بينما أمته معصومة بمجموعها :

لذلك البشر يتمايزون بمقاييس أرضية من هذه المقاييس القوة، القوي محترم، يقول لك وأنت بالخدمة الإلزامية عريف بسبعة: ازحف، لو جاء الأمر من لواء أركان حرب، الفرق كبير جداً

بين الأمر الأول والأمر الثاني، الإنسان بقدر معرفته للآمر يكون موقفه من الأمر، وفي بعض الأدعية التي نقلت عن النبي عليه الصلاة والسلام: لا بورك لي في طلوع شمس يومٍ لم أزدد فيه من الله علماً، وفي رواية ثانية : ولا بورك لي في طلوع شمس يومٍ لم أزدد فيه من الله قرباً.

((اللّهُمَّ انفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي وَزِدْنِي عِلْمًا ...))

[الترمذي عن أبي هريرة]

عندنا ميزة في هذه الأمة أن هذه الأمة لا تجتمع على خطأ، النبي عليه الصلاة والسلام معصوم بمفرده، بينما أمته معصومة بمجموعها، معصومة بمجموعها دليله: لا تجتمع أمتي على خطأ. يُنشر كتاب واضح، لا يوجد فيه خطأ، و لا شذوذ، و لا عقيدة فاسدة، لا أحد يتكلم بأي كلمة، سماه العلماء هذا الموقف إجماع سكوتي، لكن يتألف كتاب يُقرأ من بعض طلاب العلم تقوم الدنيا ولا تقعد، معنى ذلك هذه الأمة لا تجتمع على خطأ، وهذا من فضل الله علينا.

التفكر في خلق السماوات والأرض يرقى بالإنسان إلى أعلى عليين :

لكن العلم نوعان، إما أن تتفكر في خلق السماوات والأرض بجهد جهيد، وعمل شخصي، وهذا التفكر في خلق السماوات والأرض يرقى بك إلى الله بل إلى أعلى عليين، كان النبي عليه الصلاة والسلام يتعبد الليالي ذوات العدد، إذا شخص أكرمه الله بالحج أو العمرة هناك بمكة طريق جبل النور، الطريق غير معبد، والوصول إلى هذا الجبل يحتاج إلى أكثر من ساعتين، بجهد جهيد، هناك يوجد مغارة تطل على الكعبة المشرفة، فكان النبي عليه الصلاة والسلام يتعبد الله الليالي ذوات العدد، أي أنسه بالله عز وجل غلب وحشة المكان، أنا أتمنى على كل واحد منكم أن يكون له مع الله عز وجل جلسة صباحية ربع ساعة، يقرأ القرآن، يقرأ خمس صفحات، عشر صفحات، يذكر الله:

﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ ﴾

[سورة الإنسان: ٢٥]

يدعو، بين دعاء، بين ذكر، بين تلاوة، بين صلاة:

((وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾

[سورة المزمل: ٦]

كلام النبي عليه الصلاة والسلام وحي يوحى :

أيها الأخوة الكرام، قد يسأل سائل النبي عليه الصلاة والسلام أمي، لماذا هو أمي؟ لأنه لو حصّل ثقافة عصره ثم جاءه الوحي فتلا على أصحابة القرآن الكريم لسألوه مع كل لقاء هذا كلام الله أم من ثقافتك؟ فقال تعالى:

﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾

[سورة العنكبوت: ٤٨]

فكل كلام النبي عليه الصلاة والسلام وحي يوحى:

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾

[سورة النجم:٣-٤]

لذلك تروي الروايات أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما جاءه جبريل جاءه بوحي السماء لم يكن نائماً، ولا حالماً، بل إنّ جبريلَ عليه السلام عندما جاء النبي عليه الصلاة والسلام وقال له:

((اقْرَأْ، فقال: مَا أَنَا بِقَارِئٍ "، قَالَ : فَأَخَذَنِي فغطّني - أي ضغط علي - حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : اقْرَأْ، قُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ : اقْرَأْ، فَقُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فغطّني الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ : اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ))

[البخاري عن عائشة]

أي الوحي ليس مناماً، ولا حلماً، ولا توهماً، في أعلى درجات اليقظة، في أعلى درجات الوعي:

((فَأَخَذَنِي فَغَطّنِي - أي ضغط علي))

ثم جاءه وحي السماء.

أنواع القراءات :

١ ــ قراءة البحث و الإيمان :

لذلك أيها الأخوة، الآية الكريمة الكلمة الأولى في أول آية في أول سورة من كتاب الله اقرأ:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾

[سورة العلق: ١]

اقرأ من أجل أن تؤمن، هذه القراءة الأولى قراءة البحث والإيمان:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾

[سورة العلق: ١]

اقرأ من أجل أن تؤمن بربك الذي خلق، لكن خلق الإنسان من علق.

٢ ــ قراءة الشكر و العرفان :

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾

[سورة العلق: ٣]

اقرأ من أجل أن تشكر، القراءة الأولى قراءة البحث والإيمان، والقراءة الثانية قراءة الشكر والعرفان.

٣ ــ قراءة الوحي والإذعان :

والقراءة الثالثة:

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ *عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

[سورة العلق: ٣ –٥]

هذه قراءة الوحي، عندنا قراءة البحث والإيمان، والقراءة الثانية قراءة الشكر والعرفان، والقراءة الثالثة قراءة الوحي والإذعان، ثلاث قراءات.

٤ ــ قراءة العدوان و الطغيان :

وهناك قراءة رابعة نعوذ بالله منها:

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى ﴾

[سورة العلق: ٦-٧]

بالعلم أسلحة كيماوية، أسلحة جرثومية، أسلحة نووية، من أجل السيطرة على أركان الأرض، هذا علم آخر من هنا قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن عين لا تدمع، ومن نفس لا تشبع))

[مسلم عن زيد بن أرقم]

الموضوع العلمي :

جسم الإنسان آية دالة على عظمة الخالق سبحانه و يتجلى ذلك بـــ :

أيها الأخوة الكرام، الموضوع العلمي، وهذه حقائق أكررها كثيراً، أنت متى تستقيم على أمر الله؟ إذا عرفته، أي إذا عرفت الآمر ثم عرفت الأمر تفانيت في طاعة الآمر، أما إذا عرفت الأمر ولم تعرف الآمر تفننت في التفلت من الأمر، دائماً وأبداً أقول لكم: أقرب آية دالة على عظمة الله إليك جسمك، هذه آية والله لو أمضيت الحياة كلها في دراسة تفاصيلها لا تنتهي، لكن الندم الشديد يوم القيامة حينما تكون آيات الله بين يديك، وأنت في غفلة عنها.

١ ـــ الشعر :

برأس الإنسان هناك شعر، بأي مكان في الجسم هناك أعصاب حس، امسك دبوساً بأي مكان غرسته هناك ألم لكن الشعر لا يوجد فيه أعصاب حس، لو كان فيه أعصاب حس يسألونك: أين ذاهب؟ فتجيب: ذاهب لأعمل عملاً جراحياً في المستشفى، تحتاج إلى تخدير كامل، هل انتبهت إلى هذه النقطة أن الشعر ليس فيه أعصاب حس، والأظافر كذلك لا يوجد فيها أعصاب حس، فالإنسان أمام آيات مذهلة.

٢ ـــ العين :

هل انتبهت إلى أن عينك لها قرنية، والقرنية طبقة شفافة شفافية تامة، وأنت تعلم علم اليقين أنه لا يوجد ميليمتر في الجسم إلا ويتغذى عن طريق الشعريات الدموية، لو أن طبقة القرنية في العين تتغذى عن طريق الشعريات لرأيت الأشياء ضمن شبكة، لكن الحكمة الإلهية أن القرنية التي هي الطبقة الأولى بالعين تتغذى بطريقة فذة، طريقة فريدة، تتغذى عن طريق الحلول، فأول خلية بالقرنية تأخذ غذاءها وغذاء جارتها، وينتقل هذا الغذاء غبر الغشاء الخلوي، لذلك القرنية شفافة شفافية تامة.

الماء يتجمد، بأي درجة؟ بالصفر، ما قولك أن هناك أماكن في فنلندا تصل البرودة فيها إلى تسع وستين تحت الصفر، وعينك فيها ماء، لماذا هذا الماء لا يتجمد؟ معنى ذلك كل إنسان عاش بهذه البلاد يجب أن يفقد بصره، لكن الله عز وجل أودع في ماء العين مادة مضادة للتشنج، حكمة من؟ علم من؟ رحمة من؟ قدرة من؟

٣ ـ الأنف :

والله أيها الأخوة، أتمنى عليكم أن تتفكروا في هذا الجسم، الأنف؛ لاحظ بالشتاء البارد أنف الإنسان يصبح أحمر اللون، يزداد حمرة ما السبب؟ إذا كانت درجة الهواء صفراً، وأنت تتنفس من أنفك، فإذا دخل الهواء الذي درجته صفر إلى الأنف وانتقل إلى الرئتين وأنت حرارتك تقدر بسبع وثلاثين درجة، هناك مشكلة كبيرة جداً، الانتقال المفاجئ من البارد للساخن يعمل للإنسان مشكلة، لذلك الأوعية الدموية بالأنف لها عضلات في أثناء البرد تتوسع، فإذا توسعت جاء الدم غزيراً، والدم حرارته سبع وثلاثون، فالهواء الذي يدخل إلى الأنف يصل إلى الحلق درجته سبع وثلاثون عن طريق سطوح متداخلة، أي الهواء يمشي بالأنف بطريق طويل وسطوح متداخلة، كان هنا بدرجة صفر وصل إلى هنا بدرجة تقدر بسبع وثلاثين، لو أن في الهواء غباراً أو آثار احتراق، هناك طبقة مخاطية على هذه السطوح، هذا الغبار وهذا الفحم يلتصق بهذه الطبقة، فإذا نظف الإنسان أنفه يخرج من الأنف مادة سوداء، ذرات الفحم العالقة بالهواء تلتصق بهذه الطبقات، يد من؟ علم من؟ حكمة من؟ صنعة من؟ لذلك الذي يتنفس من فمه يعطل هذا الجهاز، هذا الجهاز له مكانة كبيرة جداً، جهاز بالغ التعقيد، يجعل الهواء من صفر إلى سبع وثلاثين، وأي شيء يحمله الهواء من غبار أو من ذرات فحم تلتصق، لذلك إذا فكرت بالأنف أو بالعين أو بالشعر أو بالأظافر تجد أن هناك آيات عظمى.

٤ ـ المري :

فكرت بالمري، إذا إنسان علقناه من رجليه وأطعمناه، ما الذي يحصل؟ تنتقل هذه التفاحة عبر المري إلى المعدة، لكن هو معلق من رجليه والمعدة في الأعلى والتفاحة في الأسفل فكيف تصعد هذه إلى أعلى بعكس الجاذبية؟ المري فيه عضلات دائرية تتقلص تباعاً، فلو علقت إنساناً من رجليه وأطعمته تفاحة، هذه التفاحة بعد أن يمضغها في فمه، والناتج ينتقل إلى المعدة صعوداً، صنعة من هذه؟

٥ ـ لسان المزمار :

وأنت نائم غارق في النوم يجتمع اللعاب في فمك، ما الذي يحصل؟ تذهب رسالة إلى الدماغ أن اللعاب زاد، يأتي أمر من الدماغ ينتقل لسان المزمار من تغطية المري إلى تغطية القصبة، وأنت نائم لسان المزمار يغطي المري، يغلق القصبة الهوائية من أجل أن تتنفس، وأنت نائم تبلع اللعاب وأنت مرتاح، أوضح شيء عند طبيب الأسنان إذا العملية طويلة يضع لك شراقة، هذا اللعاب

يزداد حتى يخرج من الفم، أنت تنام كل اللعاب الزائد ينتقل إلى المري، بعد أن ينتقل إلى المري يرجع لسان المزمار يغطي المري ويفتح القصبة.

٦ ــ مراكز الإحساس بالضغط :

وأنت نائم هناك مراكز الإحساس بالضغط، الهيكل العظمي وما فوقه من عضلات تضغط على ما تحته من عضلات، هذا الضغط يؤدي إلى أن تضيق لمعة الأوعية فتضعف التروية، تذهب رسالة من القسم الذي تحت الهيكل العظمي إلى الدماغ صار هناك ضغط قلّت التروية، الدماغ يعطي أمراً وأنت نائم فتتقلب، لما قلبت قلبة عكست الموضوع، العضلات المضغوطة أصبحت فوق، والضاغطة أصبحت تحت، قال تعالى:

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾

[سورة الكهف: ١٨]

هذه أشياء بديهة أنت نائم تتقلب خمس مرات، عشر مرات، لو قلبك ذات اليمين وذات اليمن تقع من على السرير.

أيها الأخوة الكرام، عود نفسك أن تفكر بجسمك، وأنت تشرب اسأل نفسك: هذا الماء عذب لو كان مالحاً من جعله عذباً فراتاً؟ هذا الخبز كان قمحاً، هناك أشياء بين أيديكم فإذا عرفت الله أكثر ازدادت طاعتك له أكثر، وازدادت محبتك له أكثر، وازداد قربك له أكثر.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس